الهلاك

أسبابه وموانعه وقصص الهالكين

تأليف

أبي عبد اللّه

عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري

تقديم فضيلة الشيخ العلامة

أبي عبد الرحمن
يحيى بن علي الحجوري

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة الشيخ العلامة
يحيى بن علي الحجوري حفظه الله

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما بعد:فقد طالعت ما جمعه أخونا الداعي إلى الله الفاضل عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري حفظه الله في رسالته هذه بعنوان"الهلاك أسبابه وموانعه وقصص الهالكين"فرأيته جمع في الموضوع جمعاً طيباً اشتمل على خير كثير من الآيات والأحاديث وشروحها من كتب العلم فصار البحث مفيداً في بابه نسأل الله العظم أن ينفع به وبصاحبه وبالله التوفيق

كتبه يحيى بن علي الحجوري في السابع من ذي الحجة ١٤٣٠هجرية

مقدمة المؤلف

إن الحمد لله نحمده ، و نستعينه ، ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا .

من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.وأ شهد أن محمداً عبدُه و رسولُه .

(ياأيها الذين آ مَنُوا اتقُوا اللهَ حَق تُقَا ته ولاتموتن إلا وأنتم مُسلمُون)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)

(يَا أ يها الذين آ منوا اتقوا الله وقولوا قَو لاً سَديداً يُصلح لَكُم أَعمالكم وَيَغفر لَكُم ذُنُوبَكُم وَ مَن يُطع الله وَ رَسُولَهُ فَقَد فَازَ فَوزاً عَظيماً)

أ ما بعد :فإن الله سبحانه وتعالى يقول في كتابه الكريم(فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ)[الحشر:٢]

ويقول سبحانه وتعالى(لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)[يوسف:١١١] فأمرنا ربنا في الآية الأولى بالاعتبار وأخبرنا في الآية الثانية

بأن ما يحصل في الأمم الماضية من الدمار والهلاك والعقوبات والنكبات ينبغي أن يكون لنا فيه معتبر وعما يسببه من الذنوب والمعاصي منزجر.

ولا يجوز لمسلم أن يعتقد بأن ما يحصل من دمار وهلاك وزلازل وفيضانات وغير ذلك من العقوبات أنها أمور طبيعية فإن الذي يسند الأمور إلى الطبيعة ويقول: حوادث طبيعية، فإذا أراد أن الطبيعة هي المتصرفة بذاتها فهذا القول كفر أكبر لقول الله تعالى ﴿الْحَمْدُ للهِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله ﴿ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾

وفي "الصحيحين" عن زيد بن خالد الجهنيّ أنه قال: صلّى لنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم صلاة الصّبح بالحديبية على إثر سماء كانت من اللّيلة، فلمّا انصرف النّبيّ صلى الله عليه وعلى آله وسلم أقبل على النّاس فقال: ((هل تدرون ماذا قال ربّكمْ))؟ قالوا: الله ورسوله أعلم؟ قال: ((أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأمّا من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأمّا من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)).

وفي "الصحيحين" عن عائشة وابن عباس وغيرهما رضي الله عنهم، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((إنّ الشّمس والقمر لا يكسفان لموت أحد ولا لحياته، ولكنّهما من آيات الله يخوّف الله بهما عباده، فإذا رأيتم كسوفًا فاذكروا الله حتّى ينجليا)).

إنّ القائلين بأنها أمور طبيعية يبطلون انتقام الله لأوليائه، قال سبحانه وتعالى في قوم صالح في سورة الأعراف: {فعقروا النّاقة وعتوا عن أمر ربّهم وقالوا يا

صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتْهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * فتولّى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ولكن لا تحبّون النّاصحين}.

وقال في قوم شعيب في سورة الأعراف: {وقال الملأ الّذين كفروا من قومه لئن اتّبعتم شعيبًا إنّكم إذاً لخاسرون * فأخذتْهم الرّجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الّذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها الّذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين * فتولّى عنهم وقال ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين}

إن ما حصل في حضرموت وجدة من سيول جارفة هدمت البيوت وخربت المزارع وأغرقت الخلق الكثير وما حصل في أندنوسيا وغيرها من الزلازل والفيضانات التي هلك بسببها خلق كثير إن لنا في ذلك كله لعبرة وعظة فإن المنكرات الموجودة في حضرموت وفي جدة وفي أندنوسيا موجوده في غيرها من بلاد المسلمين .

ولكن الله سبحانه وتعالى جعل لنا عبرةً في بلد إخواننا الحضرميين وأهل جدة والأندوسيين والشأن كل الشأن: هل اعتبرنا؟ وهل رجعنا إلى الله؟ أم صرنا كما يقول ربنا عز وجل: {أولا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين ثمّ لا يتوبون ولا هم يذّكّرون)

فالمنكرات والفساد موجودان في البلاد الإسلامية، كل يوم وهي تتجسّد، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

وقد يقول بعض المنحرفين: فما ذنب الأطفال؟ نقول: لقد أخذوا بذنب آبائهم وأهليهم.

ففي "الصحيح" عن عائشة رضي الله عنها، أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: ((يغزو جيش الكعبة فإذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوّلهم وآخرهم)) قالت: قلت: يا رسول الله كيف يخسف بأوّلهم وآخرهم، وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟ قال: ((يخسف بأوّلهم وآخرهم، ثمّ يبعثون على نيّاتهم)). وفي "الصحيح" أيضًا من حديث زينب بنت جحش أنّها قالت: استيقظ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم من نومه وهو محمرّ وجهه وهو يقول: ؟((لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج)) وعقد بيديه عشرة قالت زينب: قلت: يا رسول الله أنهلك وفينا الصّالحون؟ قال:((إذا كثر الخبث)). فقد كثر الخبث: الزنا وشرب الخمر والسرقة والقتل والقتال والنهب والتحزبات والتفرقات، والتبرّج والسفوروالإختلاط، فالله أعلم ما سيحدث، دع عنك الخصام بين القبائل الذين لا يحكّمون كتاب الله، ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

إننا نخشى معشر المسلمين أن يكون ما فتحه الله سبحانه وتعالى على كثير من البلاد استدراجًا من الله سبحانه وتعالى، هل نشكر نعمته أم نكفرها؟

إن المسلمين الآن أصبحوا يهرولون بعد أعداء الإسلام، ويظنون أن أعداء الإسلام تقدّموا بسبب الكفر والإلحاد، وبسبب المعاصي، والواقع أن أعداء الإسلام تقدّموا بسبب جدّهم واجتهادهم.(١)

من أجل هذا كله فقد رأيت أن أجمع ما يسره الله لي من أسباب الهلاك وموانعه وقصص الهالكين ليكون لنا في ذلك عبرة إن شاء الله تعالى وليستيقظ كثير من المسلمين من غفلتهم ويعودوا إلى ربهم فنسأل الله أن ينفع بذلك الإسلام والمسلمين وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وعملي في هذا المبحث كما يلي:

أولاً:قسَّمته إلى أربعة أقسام :

القسم الأول:فوائد متفرقة في الهلاك.

القسم الثاني:قصص الهالكين وأكثر هذا القسم منقول من كلام أهل العلم كالحافظ ابن كثير في "قصص الأنبياء"وكابن الجوزي في"المدهش"وغيرهما.

القسم الثالث:أسباب الهلاك وهذا القسم مقسَّم إلى ثلاثة فصول .

الفصل الأول:في أسباب الهلاك التي تعود إلى الاعتقاد.

الفصل الثاني:في أسباب الهلاك التي تعود إلى عدم الانضباط بالشرع .

الفصل الثالث:في أسباب الهلاك التي تعود إلى معاملة المخلوقين بعضهم مع بعض.

---

(١) انظر"ايضاح المقال في أسباب الزلزال" لشيخنا الإمام الوادعي رحمه الله.

القسم الرابع:بعض موانع الهلاك.

ثانياً:شرحت في الحاشية الألفاظ الغريبة الموجودة في بطن الرسالة.

ثالثاً:حرصت ألا أستدل إلا بحديث ثابت حسب قواعد علم الحديث

هذا وإني لأشكر ربي عزوجل على نعمه الظاهرة والباطنة ثم أشكر والديَّ الكريمين الذين شجعاني على الخير وحثَّاني عليه ثم أشكر لشيخنا وإمامنا وعالمنا أبي عبد الرحمن مقبل بن هادي الو ادعي على ماقام به تجاهنا من تعليم وتربية ونصح وإرشاد فرحمه الله رحمة واسعة وجمعنا وإياه في الفردوس الأعلى وكذلك أشكر لشيخنا العلامة الناصح الأمين أبي عبد الرحمن يحيى بن علي الحجوري حفظه الله الذي طالما استفدنا منه علماً ونصحاً وإرشاداً وتربية فهو خير خلف لخير سلف فحفظه الله ورعاه وجعله شوكة في حلوق أهل الباطل وهو كذلك بحمد الله .

و أشكر كل من أعانني في هذا البحث المتواضع الذي هو جهد المقل والله الموفق

كتبه أبو عبد الله عبد الرحمن بن عبد المجيد الشميري في ٢/ من ذي القعدة لعام١٤٣٠ للهجرة النبوية على صاحبها الصلاة والسلام.

القسم الأول: فوائد متفرقة في الهلاك

تعريف الهلاك

تعريف الهلاك لغة:

قال في "العين": الهُلْكُ، والهلاك، والاهتلاك، رَمْيُ الإنسان نفسه في تهلكة.

والتَّهْلُكَة: كل شيء يصير عاقبته إلى الهلاك، والقطاة تهتلك من خوف البازي، أي: ترمي نفسها في المهالك، وقوم هلكى، وهالكون.

معنى الهلاك الوارد في ألفاظ القرآن

قال الراغب الأصفهاني في "مفردات القرآن" (صـ٨٤٣) مادة (هلك):

الهلاك على ثلاثة أوجه:

* افتقاد الشيء عنك وهو عند غيرك موجود، كقوله تعالى: ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾[الحاقة:٢٩].

* وهلاك الشيء باستحالة وفساد، كقوله: ﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥] ويقال: هلك الطعام.

* والثالث الموت كقوله: ﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ﴾ [النساء:١٧٦].

وقال تعالى مخبرًا عن الكفار: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية:٢٤].

ولم يذكر الله الموت بلفظ الهلاك، حيث لم يقصد الذم إلا في هذا الموضع وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر:٣٤] وذلك لفائدة يختص ذكرها بها بعد هذا الكتاب.

* والرابع: بطلان الشيء من العالم وعدمه رأسًا وذلك المسمى فناءً المشار إليه بقوله : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص:٨٨].

ويقال للعذاب والخوف والفقر الهلاك، وعلى هذا قوله: ﴿وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٦] ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ [مريم:٧٤] ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ [الأعراف:٤].

والهُلْكُ: بالضم الإهلاك، والتهلكة ما يؤدي إلى الهلاك، قال تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].انتهى

وانظر"بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز"للعلامة الفيروز آبادي صاحب القاموس المحيط بصيرة "هلك"(٥/ ٣٣٨)

النهي عن تعاطي أسباب الهلاك

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥].

قال الإمام الشوكاني رحمه الله(١):

وللسلف في معنى الآية أقوال، سيأتي بيانها، وبيان سبب نزول الآية، والحق أن الاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل ما صدق عليه أنه تهلكة في الدين، فهو داخل في هذا، وبه قال ابن جرير الطبري(٢). اهـ

هلاك القرى لا يحصل إلا بعد قيام الحجة

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ﴾ [الحجر:٤].

---

(١) "فتح القدير" (١/ ٣٤٩).

(٢) "تفسير الطبري" (٢/ ٢٠٥).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):

يخبر تعالى أنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ * ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الشعراء:٢٠٨-٢٠٩].

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء:١٥].

خوف السلف الصالح على أنفسهم وغيرهم من الهلاك

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ جاءه رجل فقال يا رسول الله هلكت. قال: «مالك». قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تجد رقبة تعتقها؟». قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين؟». قال: لا. فقال: «فهل تجد إطعام ستين مسكينًا؟». قال: لا. قال: فمكث النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) "تفسير ابن كثير" عند الآية.

فبينا نحن على ذلك أتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق فيه تمر والعرق المكتل(١)، قال: «أين السائل؟» فقال: أنا قال: «خذ هذا فتصدق به» فقال الرجل: أعلى أفقر مني يا رسول الله؟ فوالله ما بين لابتيها - يريد الحرتين(٢)-، أهل بيت أفقر من أهل بيتي، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه(٣) ثم قال: «أطعمه أهلك». متفق عليه(٤).

وعن مجاهد قال: دخلت على ابن عباس فقلت: يا ابن عباس، كنت عند ابن عمر، فقرأ هذه الآية، فبكى، قال: أَيَّةَ آية؟ قلت: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ الله﴾ [البقرة:٢٨٤].

قال ابن عباس : إن هذه الآية حين أنزلت، غمت أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، غمًّا شديدًا، وغاظتهم غيضًا شديدًا، يعني: وقالوا: يا رسول الله، هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا، وبما نعمل، فأما قلوبنا فليست بأيدينا، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : «قولوا سمعنا وأطعنا» قال: فنسختها هذه الآية: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى: ﴿لَا يُكَلِّفُ الله نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة:٢٨٥- ٢٨٦].

---

(١) (العرق): قال النووي: ويقال للعرق: الزَّبيل والزِّنبيل والقفة، والمكتل، والسفيفة، قال والعرق عند الفقهاء: ما يسع خمسة عشر صاعًا وهي ستون مدًا لستين مسكينًا لكل مسكين مد.

(٢) (لابتيها): هما الحرتان والمدينة حرتين والحرة الأرض الملبسة حجارة سوداء.

(٣) (أنيابه): الناب هو السن الذي خلف الرباعية.

(٤) البخاري (١٩٣٦)، ومسلم (١١١١).

فَتُجُوِّزَ لهم عن حديث النفس، وأخذوا بالأعمال(١).

وعن شقيق قال دخل عبدالرحمن بن عوف على أم سلمة رضي الله عنها فقال: يا أم المؤمنين، إني أخشى أن أكون قد هلكت، إني من أكثر قريش مالًا بعت؛ أرضًا لي بأربعين ألف دينار، فقالت: أنفق يا بني؛ فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن من أصحابي من لا يراني بعد أن أفارقه» فأتيت عمر فأخبرته، فأتاها فقال: بالله أنا منهم؟ قالت: اللهم! لا، ولن أبرئ أحدًا بعدك(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قدم الطفيل وأصحابه، فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت، وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس، فقال: «اللهم اهد دوسًا وائت بهم»(٣).

وعن قيس بن عباد، قال: أتيت المدينة للقيِّ أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن فيهم رجل ألقاه أحب إلي من أُبَي، فأقيمت الصلاة، وخرج عمر مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقمت في الصف الأول، فجاء رجل فنظر في وجوه القوم، فعرفهم غيري، فنحاني(٤) وقام في مكاني، فما عقلت(١)

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣٣٢)، وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ١١٣-١١٤)، بإسناد صحيح، وأصله في "صحيح مسلم" (١٢٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٣١٧)، وأبو يعلى (١٢/ ٤٣٦)، وصححه شيخنا العلامة الوادعي في "الصحيح المسند" (١٦٤٧).

(٣) أخرجه مسلم (٢٥٢٤).

(٤) فنحاني أي: أبعدني.

صلاتي، فلما صلى قال: يا بني، لا يسوؤك الله؛ فإني لم آتك الذي أتيتك بجهالة، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنا: «كونوا في الصف الذي يليني» وإني نظرت في وجوه القوم فعرفتهم غيرك، ثم حدَّث، فما رأيت الرجال متحت(٢) أعناقها إلى شيء، متوحها إليه، قال: سمعته يقول: هلك أهل العقدة(٣) ورب الكعبة، ألا لا عليهم آسى(٤)، ولكن آسى على من يَهْلِكُون من المسلمين، وإذا هو أبي(٥).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: أقبلت أنا وصاحبان لي، وقد ذهبت أسماعنا وأبصارنا من الجهد(٦)، فجعلنا نعرض أنفسنا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فليس أحد منهم يقبلنا، فأتينا النبي صلى الله عليه وسلم فانطلق بنا إلى أهله، فإذا ثلاثة أعنز، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «احتلبوا هذا اللبن بيننا» قال: فكنا نحتلب، فيشرب كل إنسان منا نصيبه، ونرفع للنبي صلى الله عليه وسلم نصيبه، قال: فيجيء من الليل، فيسلم تسليمًا لا يوقظ نائمًا، ويسمع اليقظان، قال: ثم يأتي المسجد فيصلي، ثم يأتي شرابه فيشرب، فأتاني الشيطان ذات ليلة، وقد

---

(١) عقلت أي: فهمت.

(٢) قال في "النهاية" أي: مدت أعناقهم نحوه.

(٣) قال في "النهاية" (٦٢٩): يريد البيعة المعقودة للولاة.

(٤) أي: أحزن. كما في "النهاية" (٣٨).

(٥) أخرجه أحمد (٥/ ١٤٠)، وصححه شيخنا الوادعي في "الصحيح المسند" (٨).

(٦) الجهد أي: الجوع والمشقة.

شربت نصيبي، فقال: محمد يأتي الأنصار فيتحفونه(١)، ويصيب عندهم، ما به حاجة إلى هذه الجرعة(٢)، فأتيتها فشربتها، فلما أن وغلت(٣) في بطني، وعلمت أنه ليس إليها سبيل، قال: ندمني الشيطان، فقال: ويحك ما صنعت؟ أشربت شراب محمد؟ فيجيء، فلا يجده فيدعو عليك فتهلك، فتذهب دنياك وآخرتك، وعليَّ شملة(٤)، إذا وضعتها على قدمي خرج رأسي، وإذا وضعتها على رأسي خرج قدماي، وجعل لا يجيئني النوم، وأما صاحباي فناما، ولم يصنعا ما صنعت، قال: فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فسلَّم كما كان يُسلِّم ثم أتى المسجد فصلى، ثم أتى شرابه فكشف عنه، فلم يجد فيه شيئًا، فرفع رأسه إلى السماء، فقلت: الآن يدعو عليَّ فأهلك، فقال: «اللهم أطعم من أطعمني واسق من أسقاني» قال: فعمدت إلى الشملة فشددتها عليَّ، وأخذت الشفرة(٥) فانطلقت إلى الأعنز أيها أسمن، فأذبحها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا هي حافلة، وإذا هن حفل(٦) كلهن، فعمدت إلى إناء لآل محمد صلى الله عليه وسلم ، ما كانوا يطمعون أن يحتلبوا فيه، قال:

---

(١) فيتحفونه: التحفة: ما يقدم للمتحَف من بر وضيافة ولطف.

(٢) الجرعة: الحثوة من المشروب.

(٣) وغلت أي: دخلت وتمكنت.

(٤) الشملة: كل كساء يشتمل به، واشترط بعضهم أن يكون أهدب.

(٥) الشفرة: السكين.

(٦) حفَّل: جمع حافل، أي ممتلئة الضروع.

فحلبت فيه، حتى علته رغوة(١)، فجئت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال: «أشربتم شرابكم الليلة؟» قال: قلت: يا رسول الله، اشرب، فشرب، ثم ناولني، فقلت: يا رسول الله، اشرب فشرب، ثم ناولني، فلما عرفت أن النبي صلى الله عليه وسلم، قد روي وأصبت دعوته ضحكت، حتى ألقيت إلى الأرض، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إحدى سوآتك(٢) يا مقداد» فقلت: يا رسول الله، كان من أمري كذا وكذا، وفعلت كذا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «ما هذه إلا رحمة من الله، أفلا كنت آذنتني(٣)، فنوقظ صاحبينا فيصيبان منها» قال: فقلت: والذي بعثك بالحق، ما أبالي إذا أصبتَها وأصبتُها معك، من أصابها من الناس(٤).

والشاهد من هذا الحديث:

قوله: «فقلت: الآن يدعو عليَّ فأهلك».

فخاف على نفسه من الهلاك.

وعن شريح بن هانئ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه».

قال: فأتيت عائشة، فقلت: يا أم المؤمنين، سمعت أبا هريرة يذكر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حديثًا إن كان كذلك فقد هلكنا. فقالت: إن الهالك من هلك

---

(١) رغوة: زبد اللبن الذي يعلوه.

(٢) إحدى سوآتك يا مقداد أي: أنك فعلت سوءة، من الفعلات، ما هي؟ فأخبره خبره.

(٣) آذنتني أي: أعلمتني.

(٤) رواه مسلم (٢٠٥٥).

بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما ذاك؟ قال: قال رسول الله صلى الله عيه وسلم: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه».

وليس منا أحد إلا وهو يكره الموت، فقالت: قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس بالذي تذهب إليه، ولكن إذا شخص البصر(١)، وحشرج(٢) الصدر، واقشعر الجلد(٣)، وتشنجت الأصابع(٤)، فعند ذلك: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه»(٥).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنه قال: لم أزل حريصًا على أن أسأل عمر رضي الله عنه ، عن المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله لهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]. فحَجَجْتُ معه فعدل(٦) وعدلت معه بالإداوة، فتبرز(٧) حتى جاء، فسكبت على يديه من الإداوة، فتوضأ، فقلت: يا أمير المؤمنين، من المرأتان من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتان قال الله عزَّوجلَّ لهما: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللهِ﴾[التحريم: ٤]. فقال: واعجبي لك يا ابن عباس!

---

(١) شخص البصر: هو ارتفاع الأجفان، إلى فوق، وتحديد النظر.

(٢) الحشرجة: هي تردد النفس في الصدر.

(٣) اقشعرار الجلد: قيام شعره.

(٤) تشنج الأصابع: هو تقبضها.

(٥) رواه مسلم برقم (٢٦٨٥).

(٦) فعدل أي: عن الطريق الجادة المسلوكة إلى طريق لا يسلك غالبًا ليقضي حاجته.

(٧) فتبرز أي: قضى حاجته.

عائشة وحفصة، ثم استقبل عمر الحديث يسوقه، فقال: إني كنت وجار لي من الأنصار(١) في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي(٢) المدينة، وكنا نتناوب النزول على النبي صلى الله عليه وسلم ، فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته من خبر ذلك اليوم، من الأمر وغيره، وإذا نزل فعل مثله، وكنا معشر قريش، نغلب النساء(٣) فلما قدمنا على الأنصار، إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق(٤) نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار(٥)، فصحت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني(٦)، فقالت: ولم تنكر أن أراجعك، فوالله! إن أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ليراجعنه، وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعني، فقلت: خابت من فعل منهن بعظيم!! ثم جمعت عليَّ ثيابي(٧) فدخلت على حفصة، فقلت: أي: حفصة، أتغاضب إحداكن رسول الله صلى الله عليه وسلم اليوم حتى الليل؟ فقالت: نعم، فقلت: خابت وخسرت، أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسوله صلى الله عليه وسلم فتهلكين، لا

---

(١) وهو أوس بن خولي بن عبدالله بن الحارث الأنصاري.

(٢) العوالي وهي قرى بقرب المدينة مما يلي المشرق وكانت منازل الأوس.

(٣) نغلب النساء أي: نحكم عليهن ولا يحكمن علينا، بخلاف الأنصار، فكانوا بالعكس من ذلك.

(٤) فطفق أي: جعل.

(٥) من أدب نساء الأنصار أي: من سيرتهن وطريقتهن.

(٦) فأنكرت أن تراجعني أي: ترادني في القول، وتناظريني فيه.

(٧) ثم جمعت عليَّ ثيابي أي: لبستها جميعها.

تستكثري(١) على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا تراجعيه في شيء(٢)، ولا تهجريه، واسأليني ما بدا لك(٣)، ولا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ(٤) منك، وأحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، - يريد: عائشة - وكنا تحدثنا: أن غسان تنعل النعال(٥) لغزونا، فنزل صاحبي يوم نوبته، فرجع عشاءً فضرب بابي ضربًا شديدًا، وقال: أنائم هُو؟ ففزعت(٦) فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم قلت: ما هو؟! أجاءت غسان؟!

قال: لا، بل أعظم منه وأطول، طلق رسول الله صلى الله عليه وسلم نساءه. قال: قد خابت حفصة وخسرت، كنت أظن أن هذا يوشك أن يكون، فجمعت عليَّ ثيابي، فصليت صلاة الفجر مع النبي صلى الله عليه وسلم ، فدخل مشربة(٧) له، فاعتزل فيها، فدخلت على حفصة، فإذا هي تبكي، قلت: ما يبكيك؟ أو لم أكن حذرتك، أطلقكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قالت: لا أدري، هو ذا في المشربة، فخرجت فجئت المنبر، فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلًا، ثم

---

(١) لا تستكثري أي: لا تطلبي منه الكثير.

(٢) ولا تراجعيه في شيء أي: لا ترادديه في الكلام ولا تردي عليه قوله.

(٣) ما بدا لك أي: ما ظهر لك.

(٤) أوضأ: من الوضاءة، أي: أجمل.

(٥) تنعل النعال أي: تستعمل النعال، وهي نعال الخيل.

(٦) ففزعت أي: خفت من شدة ضرب الباب، بخلاف العادة.

(٧) مشربة أي: غرفة.

غلبني ما أجد(١)، فجئت المشربة التي هو فيها، فقلت لغلام له أسود(٢): استأذن لعمر،

فدخل فكلم النبي صلى الله عليه وسلم ثم خرج، فقال: ذكرتك له فصمت(٣)، فانصرفت حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت فذكر مثله، فجلست مع الرهط الذين عند المنبر، ثم غلبني ما أجد، فجئت الغلام، فقلت: استأذن لعمر فذكر مثله، فلما وليت منصرفًا، فإذا الغلام يدعوني، قال: أذن لك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخلت عليه، فإذا هو مضطجع على رمال حصير(٤)، ليس بينه وبينه فراش، قد أثر الرمال بجنبه صلى الله عليه وسلم ، متكئ على وسادة من أدم(٥)، حشوها ليف(٦)، فسلمت عليه، ثم قلت وأنا قائم: طلقت نساءك؟ فرفع بصره إلي، فقال: «لا». ثم قلت وأنا قائم أستأنس(٧): يا رسول الله، لو رأيتني وكنا معشر قريش، نغلب النساء، فلما قدمنا المدينة، إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قلت: لو رأيتني ودخلت على

---

(١) ثم غلبني ما أجد أي: من شغل قلبه بما بلغه.

(٢) غلام له أسود: اسمه رباح، كما في بعض الروايات.

(٣) فصمت أي: سكت.

(٤) رمال حصير: المراد به النسج تقول: رملت الحصير، وأرملته إذا نسجته.

(٥) من أدم أي: من جلد.

(٦) ليف: هو ما يخرج من أصول سعف النخل، يحشى بها الوسائد، ويفتل منها الحبال.

(٧) استأنس أي: انبسط في الحديث.

حفصة، فقلت: لا يغرنك أن كانت جارتك هي أوضأ منك، وأحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم - يريد: عائشة - فتبسم أخرى، فجلست حين رأيته تبسم، ثم رفعت بصري في بيته، فوالله! ما رأيت فيه شيئًا يرد البصر، غير أهبة ثلاثة(١)، فقلت: ادع الله فليوسع على أمتك؛ فإن فارس والروم وسع عليهم، وأعطوا الدنيا، وهم لا يعبدون الله، وكان متكئًا، فقال: «أَوَ فِي شَكٍّ أَنت يا ابن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا». فقلت: يا رسول الله، استغفر لي.

فاعتزل النبي صلى الله عليه وسلم ، من أجل ذلك الحديث، حين أفشته حفصة إلى عائشة، وكان قد قال: «ما أنا بداخل عليهن شهرًا» من شدة موجدته(٢) عليهن، حين عاتبه الله، فلما مضت تسع وعشرون، دخل على عائشة، فبدأ بها، فقالت له عائشة: إنك أقسمت أن لا تدخل علينا شهرًا، وإنا أصبحنا لتسع وعشرين ليلة أَعُدُّها عدًّا، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «الشهر تسع وعشرون».

وكان ذلك الشهر تسعًا وعشرين، قالت عائشة: فأنزلت آية التخيير، فبدأ بي أول امرأة، فقال: «إني ذاكر لك أمرًا، ولا عليك أن لا تعجلي حتى تستأمري أبويك». قالت: قد أعلم أن أبوي لم يكونا يأمراني بفراقك، ثم قال: «إن الله قال: ﴿يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ﴾ - إلى قوله:- ﴿عَظِيمًا﴾» [الأحزاب:٢٨- ٢٩]. قلت: أفي

---

(١) الأهبة: بفتح الهمزة والهاء، وهو جمع إهاب، على غير قياس، وهو الجلد قبل الدباغ.

(٢) موجدته أي: غضبه.

هذا أستأمر أبويَّ، فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، ثم خير نساءه، فقلن مثل ما قالت عائشة(١).

ووجه الشاهد من هذا الحديث العظيم:

قول عمر: أفتأمن أن يغضب الله لغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتهلكين فخاف رضي الله عنه على ابنته حفصة رضي الله عنها من الهلاك.

إذا أهلك الله قومًا بالمسخ لم يجعل لهم نسلاً

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة زوج النبي صلى الله عليه وسلم : اللهم! متعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، قال: فقال لها النبي صلى الله عليه وسلم: «إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار موطوءة(٢)، وأرزاق مقسومة، لا يعجل شيئًا قبل حله، ولا يؤخر منها شيئًا بعد حله، ولو سألت الله: أن يعافيك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، لكان خيرًا لك».

قال: فقال رجل: يا رسول الله، القردة والخنازير، هي مما مُسِخَ، فقال النبي : صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل لم يهلك قومًا، أو يعذب قومًا، فيجعل لهم نسلًا، وإن القردة والخنازير كانوا قبل ذلك»(٣).

---

(١) رواه البخاري (٢٤٦٨)، ومسلم (١٤٧٩).

(٢) قال ابن الأثير: «وآثار موطوءة». أي: مسلوك عليها بما سبق به القدر من خير أو شر.

(٣) أخرجه مسلم (٢٦٦٣).

قال العلامة المناوي رحمه الله في "فيض القدير"(٢/ ٣٢٢)(إن الله تعالى لم يجعل لمسخ) أي الآدمي ممسوخ قردا أو خنزيرا (نسلا ولا عقبا) يحتمل أنه لا يولد له أصلا أو يولد له لكن ينقرض في حياته يعني فليس هؤلاء القردة والخنازير من أعقاب من مسخ من بني إسرائيل كما توهمه بعض الناس ثم استظهر على دفعه بقوله (وقد كانت القردة والخنازير قبل ذلك) أي قبل مسخ من مسخ من الإسرائيليين فأنى لكم في أن هذه القردة والخنازير الموجودة الآن من نسل الممسوخ انتهى.

عصمة الله لهذه الأمة أن تهلك بالغرق والقحط وأن يستبيح عدوهم بيضتهم وبيان أن هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض

عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل ذات يوم من العالية، حتى إذا مر بمسجد بني معاوية، دخل فركع فيه ركعتين، وصلينا معه، ودعا ربه طويلًا، ثم انصرف إلينا، فقال صلى الله عليه وسلم: «سألت ربي ثلاثًا، فأعطاني اثنتين، ومنعني واحدة: سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة(١)، فأعطانيها، وسألته: أن لا يهلك أمتي بالغرق، فأعطانيها، وسألته: أن لا يجعل بأسهم بينهم، فمنعنيها» (٢).

---

(١) بالسنة أي: بالقحط والشدة.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٠).

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله زوى(١) لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض(٢)، وإني سألت ربي لأمتي: أن لا يهلكها بسنة عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاءًا فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم، يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا»(٣).

---

(١) أي: جمع.

(٢) قال النووي رحمه الله: قال العلماء المراد بالكنزين الذهب والفضة والمراد كنزي كسرى وقيصر ملكي العراق والشام. اهـ من "شرح مسلم".

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٨٩).

قال العلامة العثيمين رحمه الله: فإذا صار بعضهم يقتل بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا فإنه = =يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، فكان إجابة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم في الجملة الأولى بدون استثناء، وفي الجملة الثانية باستثناء: «حتى يكون بعضهم».

وهذه هي الحكمة من تقديم قوله: «إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد»، فصارت إجابة الله لرسوله صلى الله عليه وسلم مقيدة.

ومن نعمة الله أن هذه الأمة لن تهلك بسنة بعامة أبداً، فكل من يدين بدين الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه لن يهلك، وإن هلك قوم في جهة بسنة، فإنه لا يهلك الآخرون.

فإذا صار بعضهم يقتل بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، فإنه يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وهذا هو الواقع، فالأمة الإسلامية حين كانت أمة واحدة عوناً في الحق ضد الباطل كانت أمة مهيبة، ولما تفرقت وصار

قوله: «فيستبيح بيضتهم».

قال القاضي عياض رحمه الله(١):

أي: جماعتهم وأصلهم، وهو مأخوذ من بيضة الطائر؛ لتحصينها ما فيها، واجتماعها عليه، والبيضة أيضًا العزُّ، والبيضة أيضًا المُـلْكُ. اهـ

قوله: «أن لا يهلكهم بسنة عامة».

قال النووي رحمه الله(٢):

بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً، سلط الله عليهم عدواً من سوى أنفسهم، وأعظم من سلط عليهم فيما أعلم التتار، فقد سلطوا على المسلمين تسليطاً لا نظير له، فيقال: إنهم قتلوا في بغداد وحدها أكثر من خمسمائة عالم في يوم واحد، وهذا شيء عظيم، وقتلوا الخليفة، وجعلوا الكتب الإسلامية جسراً على نهر دجلة يطئونها بأقدامهم ويفسدونها، وكانوا يأتون إلى الحوامل ويبقرون بطونهن ويخرجون أولادهن يتحركون أمامهم فيقتلونه، وهي حية تشاهد ثم تموت.

قال ابن الأثير في "الكامل": (لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة، استعظاماً لـها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدم رجلاً، وأوخر أخرى، فمن الذي يسهل عليه نعي الإسلام والمسلمين؟ ومن الذي يهون عليه ذكر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني ويا ليتني مت قبل هذا، وكن نسياً منسياً، إلا أني حثني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقف، ثم رأيت أن ذلك لا يجدي).

وذكر كلاماً طويلاً ووقائع مفجعة، ومن أراد مزيداً من ذلك، فليرجع إلى حوادث سنة (٦١٧) من الكتاب المذكور. انظر "القول المفيد شرح كتاب التوحيد" (١/ ٤٧٦ - ٤٧٧).

(١) في "إكمال المعلم" (٨/ ٤٢٧).

(٢) في "شرح مسلم" تحت حديث رقم (٢٨٨٩).

أي: لا أهلكهم بقحط يعمهم، بل إن وقع قحط، فيكون في ناحية يسيرة، بالنسبة إلى باقي بلاد الإسلام، فلله الحمد، والشكر، على جميع نعمه. اهـ

لا يهلك على الله إلا هالك

عن ابن عباس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى، قال: «إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة، فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها، كتبها الله عزوجل عنده عشر حسنات، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، وإن همَّ بسيئة، فلم يعملها، كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن همَّ بها فعملها، كتبها الله سيئة واحدة»(١).

وفي رواية لمسلم: «ومحاها الله، ولا يهلك على الله إلا هالك».

الشاهد من هذا الحديث:

قوله: «ولا يهلك على الله إلا هالك».

قال القاضي عياض رحمه الله(٢):

أي: من ختم عليه الهلاك، وسد عليه أبواب الهدى؛ لسعة رحمة الله تعالى وكرمه؛ إذ جعل السيئة حسنة، ولم يكتبها حتى يعمل بها، فإذا عملت كتبت واحدة، وكتب الـهَمَّ بالحسنة حسنة، وكتبها إذا عملها عشرًا إلى سبعمائة وأضعافًا كثيرة، وكل هذا

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) "إكمال المعلم" (١/ ٤٢٧).

فضل الله، إذ ضاعف حتى تكثر وتزيد على السيئات، بكثرة سيئات بني آدم، فمن حرم هذه السعة، وضيق عليه رحبها، حتى غلبت سيئاته، مع إفرادها حسناته، مع تضعيفها فهو الهالك، الذي سبق عليه ذلك في أمِّ الكتاب. اهـ

هلاك الأمم قبلنا

قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ [السجدة:٢٦].

قال ابن كثير رحمه الله(١):

يقول تعالى: أولم يهد لهؤلاء المكذبين بالرسل، ما أهلك الله قبلهم من الأمم الماضية، بتكذيبهم الرسل، ومخالفتهم إياهم، فيما جاؤوهم به، من قويم السُّبل، فلم يبق منهم باقية ولا عين ولا أثر: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم: ٩٨].

ولهذا قال: ﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ أي: وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك المكذبين، فلا يرون فيها أحدًا ممن كان يسكنها ويعمرها، ذهبوا منها: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كما قال: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ [النمل: ٥٢].

---

(١) في "تفسيره" عند هذه الآية.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ﴾ أي: إن في ذهاب أولئك القوم ودَمَارهم وما حل بهم بسبب تكذيبهم الرسل، ونجاة من آمن بهم، لآيات وعبرًا ومواعظ ودلائل متظاهرة.

﴿أَفَلا يَسْمَعُونَ﴾ أي: أخبار من تقدم، كيف كان أمرهم. اهـ

وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص:٣].

قوله: ﴿فَنَادَوْا﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: أي: حين جاءهم العذاب استغاثوا، وجأروا إلى الله تعالى، وليس ذلك بمجد عنهم شيئًا.

قوله: ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾.

قال مجاهد: أي: ليس بحين فرار ولا إجابة.انتهى

وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف:٨].

قوله: ﴿وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾

قال ابن كثير رحمه الله: قال مجاهد: سنتهم. وقال قتادة: عقوبتهم. وقال غيرهما: عبرتهم.

أي: جعلناهم عبرة لمن بعدهم من المكذبين، أن يصيبهم ما أصابهم، كقوله تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف:٥٦].انتهى

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف:٢٧].

قوله: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى﴾

قال ابن كثير رحمه الله(١): يعني: أهل مكة، وقد أهلك الله الأمم المكذبة بالرسل مما حولها، كعاد، وكانوا بالأحقاف بحضرموت، عند اليمن، وثمود، وكانت منازلهم بينهم وبين الشام، وكذلك سبأ، وهم أهل اليمن ومدين، وكانت في طريقهم وممرهم إلى غزة، وكذلك بحيرة قوم لوط، كانوا يمرون بها أيضًا.

قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ﴾ أي: بيناها وأوضحناها. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ﴾ [ق:٣٦].

قوله: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾ قال ابن عباس: أثروا فيها. وقال قتادة: فساروا في البلاد، أي: ساروا فيها يبتغون الأرزاق والمتاجر والمكاسب أكثر مما طفتم بها. اهـ(٢)

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:٥١].

قوله: ﴿أَشْيَاعَكُمْ﴾ قال ابن كثير(٣): يعني: أمثالكم، وسلفكم من الأمم السابقة، المكذبين بالرسل.

قوله: ﴿فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متعظ بما أخزى الله أولئك، وقدر لهم من العذاب.انتهى

---

(١) "المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير" (ص: ٠٠٨).

(٢) "المصباح المنير" (ص:١٠٣٩).

(٣) "تفسير ابن كثير" (ص:١٢٨٥).

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ * فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤-٥].

قوله: ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلًا. .

وقوله: ﴿أَوْ هُمْ قَائِلُونَ﴾ من القيلولة وهي الإستراحة وسط النهار. (١).

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٧].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(٢): يقول تعالى منذرًا كفار قريش في تكذيبهم رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه قد أهلك أممًا من المكذبين للرسل من بعد نوح، ودلَّ هذا على أن القرون التي بين آدم ونوح على الإسلام.

كما قاله ابن عباس: كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام.

ومعناه: أنكم أيها المكذبون، لستم أكرم على الله منهم، وقد كذبتم أشرف الرسل، وأكرم الخلائق، فعقوبتكم أولى وأحرى. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا﴾ [مريم:٧٤].

أي: كانوا أحسن من هؤلاء، أموالًا، وأمتعة، ومناظر، وأشكالًا.

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ [مريم:٩٨].

---

(١) "تفسير ابن كثير" (ص:٥١٤).

(٢) "في تفسيره" (ص: ٧٧٩).

قوله: ﴿رِكْزًا﴾ قال ابن عباس وأبو العالية وعكرمة وغيرهم: يعني: صوتًا.

قال ابن كثير رحمه الله: والركز في أصل اللغة: هو الصوت الخفي.

وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى * وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ [طه:١٢٨-١٢٩].

قوله تعالى: ﴿النُّهَى﴾ : أي: العقول الصحيحة.

قوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ﴾: أي: ولولا الكلمة السابقة من الله، وهو أنه لا يعذب أحدًا، إلا بعد قيام الحجة عليه، والأجل المسمى الذي ضربه الله تعالى لهؤلاء المكذبين، إلى مدة معينة، لجاءهم العذاب بغتة[١]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد:١٣].

---

[١] "تفسير ابن كثير" عند هذه الآية

القسم الثاني: قصص الهالكين
قصة هلاك قوم نوح عليه السلام بالغرق

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):... وقد ذكر الله قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفانوكيف أنجاه وأصحاب السفينة، في غير ما موضع من كتابه العزيز، ففى: الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت،والصافات،واقتربت، وأنزل فيه سورة كاملة.

فقال في سورة الأعراف: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٩-٦٤].

وقال تعالى في سورة يونس: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ * فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي

---

(١) "قصص الأنبياء" (صـ٧٧-٩٥).

الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس:٧١-٧٣].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ * وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * وَيَا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللهُ خَيْرًا اللهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ * وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ * وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ * وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ * وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ *

فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ * حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ * وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ * وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ * وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ * قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾[هود: ٢٥-٤٩].

وقال تعالى في سورة الأنبياء: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقال تعالى في سورة قد أفلح المؤمنون: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٣-٣٠].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ * قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٠٥-١٢٢].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا * فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٤-١٥].

وقال تعالى في سورة والصافات: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ * وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ * إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات:٧٥-٨٢].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:٩-١٧].

وقال تعالى: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا * فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا * وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا * ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا * ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ

وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا * فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا * قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا * وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا * وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا * وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا * مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا * رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح:١-٢٨].

وقد تكلمنا على كل موضع من هذه في التفسير.

وسنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه الأماكن المتفرقة، ومما دلت عليه الأحاديث والآثار.

وقد جرى ذكره أيضًا في مواضع متفرقة من القرآن، فيها مدحه وذم من خالفه.

فقال تعالى في سورة النساء: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ

وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا * وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٦٣-١٦٥].

وقال في سورة الأنعام: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ * وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ * وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الأنعام:٨٣-٨٧] الآيات.

وتقدمت قصته في الأعراف.

وقال في سورة براءة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [التوبة:٧٠].

وتقدمت قصته في يونس وهود.

وقال في سورة إبراهيم: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي

أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [إبراهيم:٩].

وقال في سورة سبحان: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء:٣].

وقال فيها أيضًا: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:١٧].

وتقدمت قصته في: الأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت.

وقال في سورة الأحزاب: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب:٧].

وقال في سورة ص: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ * وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ * إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٢-١٤].

وقال في سورة غافر: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ * وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٥-٦].

وقال في سورة الشورى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ

عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى في سورة ق: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٢-١٤].

وقال في الذاريات: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ [الذاريات:٤٦].

وقال في النجم: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى﴾ [النجم:٥٢].

وتقدمت قصته في: سورة اقتربت الساعة.

وقال تعالى في سورة الحديد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُمْ مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد:٢٦].

وقال تعالى في سورة التحريم: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ [.التحريم:١٠]

وأما مضمون ما جرى له مع قومه: مأخوذًا من الكتاب والسنة والآثار.

فقد قدمنا عن ابن عباس: أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، كلهم على الإسلام. رواه البخاري(١).

---

(١) عزوه إلى البخاري خطأ والأثر أخرجه ابن جرير (٣/ ٦٢٠)، والحاكم (٢/ ٥٤٦)، بإسناد صحيح،

وذكرنا أن المراد بالقرن: الجيل، أو المدة، على ما سلف(١).ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام.إلى أن قال رحمه الله: والمقصود، أن الفساد لما انتشر في الأرض، وعم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث الله عبده ورسوله نوحًا عليه السلام، يدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وينهى عن عبادة ما سواه.

فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، كما ثبت في "الصحيحين"(٢) من حديث أبي حيان، عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة، قال: «فيأتون آدم فيقولون: يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك وأسكنك الجنة، ألا تشفع لنا إلى ربك؟ ألا ترى ما نحن فيه وما بلغنا؟ فيقول: ربى غضب غضبا شديدًا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، ونهاني عن شجرة فعصيت، نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح.فيأتون نوحًا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، وسماك الله عبدًا شكورًا، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترى إلى ما بلغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربك عزوجل؟ فيقول: ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب

وقواه العلامة الألباني في "الصحيحة" (٧/ ٨٥٤).

(١) والصحيح أن القرن مائة سنة لحديث عبدالله بن بسر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لتدركن قرنًا» قال الراوي: فبلغنا أنه أتت عليه مائة سنة.

رواه البزار كما في "كشف الأستار" (٣/ ٢٨٠) وهو في "الصحيح المسند" (٥٥٣) لشيخنا الوادعي رحمه الله.

(٢) أخرجه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).

قبله مثله ولا يغضب بعده مثله، نفسي نفسي...» وذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخاري في قصة نوح.

فلما بعث الله نوحًا عليه السلام، دعاهم إلى إفراد عبادة الله وحده لا شريك له، وألا يعبدوا معه صنمًا ولا تمثالًا(١) ولا طوغوتًا(٢) وأن يعترفوا بوحدانيته، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، كما أمر الله تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ﴾ [الصافات:٧٧].

وقال فيه وفي إبراهيم: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٦] أي: كل نبي من بعد نوح فمن ذريته وكذلك إبراهيم.

، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آَلِهَةً يُعْبَدُونَ﴾ [الزخرف:٤٥] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

ولهذا قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩] وقال: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [هود:٢٦] وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:٦٥] وقال: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ * أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاتَّقُوهُ

---

(١) التمثال: الصورة.

(٢) الطاغوت: هو كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع قاله العلامة ابن القيم رحمه الله.

وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح:٢-٣] إلى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [نوح:١٤] الآيات الكريمات.

فذكر أنه دعاهم إلى الله بأنواع الدعوة، في الليل والنهار، والسرِّ والإجهار، بالترغيب تارة، والترهيب أخرى، وكل هذا لم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة، والطغيان، وعبادة الأصنام، والأوثان.

ونصبوا له العداوة في كل وقت وأوان(١)، وتنقصوه وتنقصوا من آمن به،وتوعدوهم بالرجم والإخراج، ونالوا منهم وبالغوا في أمرهم.

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ﴾ [الأعراف:٦٠] أي: السادة الكبراء منهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف:٦٠].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٦١]. أي: لست كما تزعمون من أني ضال، بل على الهدى المستقيم ﴿رَسُوْلٌ مِنْ رَّبِّ العَالَمِيْنَ﴾، أي: الذي يقول للشيء كن فيكون: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٦٢].

وهذا شأن الرسول أن يكون بليغًا، أي: فصيحًا ناصحًا، أعلم الناس بالله عزوجل.

وقالوا له فيما قالوا: ﴿مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود:٢٧].

تعجبوا أن يكون بشرًا رسولًا، وتنقصوا من اتبعه ورأوهم أراذلهم.

---

(١) الأوان: الحين. كما في "القاموس".

وقد قيل: إنهم كانوا من أفناد الناس، وهم ضعفاؤهم.

كما قال هرقل: وهم أتباع الرسل، وما ذاك إلا؛ لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق.

وقولهم: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ [هود:٢٧] أي: بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك، من غير نظر ولا روية(١).

وهذا الذي رموهم به، هو عين ما يمدحون بسببه : فإن الحق الظاهر، لا يحتاج إلى روية، ولا فكر، ولا نظر، بل يجب اتباعه والانقياد له متى ظهر.

وقول كفرة قوم نوح له ولمن آمن به: ﴿وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ﴾ [هود:٢٧] أي: لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان ولا مزية علينا.

﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٧– ٢٨].

وهذا تلطف في الخطاب معهم وترفق بهم في الدعوة إلى الحق.

كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه:٤٤] وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥] وهذا منه.

يقول لهم: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ﴾ [هود:٢٨] أي: النبوة والرسالة.

﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ [هود:٢٨] أي: فلم تفهموها ولم تهتدوا إليها.

---

(١) الرَّويَّة: النظر والتفكر. انظر "القاموس" (١١٨٦).

﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾ [هود:٢٨] أي: أنغصبكم بها ونجبركم عليها؟.

﴿وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود:٢٨] أي: ليس لي فيكم حيلة(١) والحالة هذه.

﴿وَيَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللهِ﴾ [هود:٢٩] أي: لست أريد منكم أجرة على إبلاغي إياكم ما ينفعكم في دنياكم وأخراكم، إن أطلب ذلك إلا من الله الذي ثوابه خير لي، وأبقى مما تعطونني أنتم.

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ [هود:٢٩] كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، ووعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك وقال: ﴿إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ﴾ أي: فأخاف إن طردتهم أفلا تذكرون.

ولهذا لما سأل كفار قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين، كعمار، وصهيب، وبلال، وخباب، وأشباههم، نهاه الله عن ذلك(٢)، كما بيناه في سورتي: الأنعام، والكهف.

﴿وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ﴾ [هود:٣١] أي: بل أنا عبد رسول، لا أعلم من علم الله إلا ما أعلمني به، ولا أقدر إلا على ما أقدرنى عليه، ولا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله.

---

(١) الحيلة: الحذق وجودة النظر والقدرة على التصرف. انظر "القاموس" مادة (حول).

(٢) رواه مسلم (٢٤١٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه .

﴿وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي(١) أَعْيُنُكُمْ﴾ [هود:٣١] يعني: من أتباعه.

﴿لَنْ يُؤْتِيَهُمُ الله خَيْرًا الله أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٣١] أي: لا أشهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند الله يوم القيامة، الله أعلم بهم، وسيجازيهم على ما في نفوسهم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

كما قالوا في المواضع الأخرى: ﴿أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ(٢) * قَالَ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ * وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ * إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ [الشعراء:١١١-١١٥].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم كما قال تعالى: ﴿فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ(٣) وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:١٤] أي: ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم.

وكانت سجاياهم تأبى(٤) الإيمان واتباع الحق.

ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٧].

ولهذا: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ الله إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود:٣٢- ٣٣]

---

(١) الازدراء: هوالاحتقار.

(٢) الأرذل هو: الدون الخسيس، أو الرديء من كل شيء، وجمعه أراذل، وأرذلون.

(٣) الطوفان: أي الماء الذي نزل من السماء بكثرة ونبع من الأرض بشدة. انظر تفسير العلامة السعدي رحمه الله.

(٤) سجاياهم أي: طبائعهم.

أي: إنما يقدر على ذلك الله عزوجل، فإنه الذي لا يعجزه شيء، ولا يكترثه(١) أمر، بل هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [هود:٣٤] أي: من يرد الله فتنته فلن يملك أحد هدايته، هو الذي يهدي من يشاء، ويضل من يشاء، وهو الفعال لما يريد، وهو العزيز الحكيم، العليم بمن يستحق الهداية، ومن يستحق الغواية، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة.

﴿وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ [هود:٣٦].

تسلية له عما كان منهم إليه: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [هود:٣٦].

وهذه تعزية لنوح عليه السلام في قومه، أنه لن يؤمن منهم إلا من قد آمن. أي: لا يسوءَنَّك ما جرى؛ فإن النصر قريب، والنبأ عجيب.

﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

وذلك أن نوحًا عليه السلام لما يئس من صلاحهم وفلاحهم، ورأى أنهم لا خير فيهم، وتوصلوا إلى أذيته ومخالفته وتكذيبه بكل طريق، من فعال ومقال، دعا عليهم دعوة غضب فلبى الله دعوته، وأجاب طلبته قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ * وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الصافات:٧٥-٧٦].

---

(١) يكترثه أي: يثقله ويشتد عليه.

وقال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنبياء:٧٦].

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ * فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١١٧-١١٨] وقال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر:١٠] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٢٦]،.

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٥-٢٧].فاجتمع عليهم خطاياهم، من كفرهم، وفجورهم، ودعوة نبيهم عليهم.فعند ذلك أمره الله تعالى أن يصنع الفلك، وهى السفينة العظيمة، التي لم يكن لها نظير قبلها، ولا يكون بعدها مثلها.

وقدم الله تعالى إليه، أنه إذا جاء أمره، وحل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين، أنه لا يعاوده فيهم ولا يراجعه؛ فإنه لعله قد تدركه رقة(١) على قومه عند معاينة العذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينة(٢).

ولهذا قال: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧]، [والمؤمنون:٢٧].

﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود:٣٨] أي: يستهزئون به استبعاداً لوقوع ما توعدهم به.

﴿قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود:٣٨] أي: نحن الذين نسخر منكم، ونتعجب منكم، في استمراركم على كفركم وعنادكم، الذي يقتضي وقوع العذاب بكم، وحلوله عليكم.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود:٣٩].

---

(١) الرِّقة: هي الرحمة. كما في "القاموس" مادة: (رقق).

(٢) ليس الخبر كالمعاينة: حديث صحيح، رواه ابن حبان. (٦٢١٤)، والحاكم (٢/ ٣٨٠)، عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو في "الصحيح المسند" (٦٣٣) للإمام الوادعي رحمه الله.

وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ، والعناد البالغ في الدنيا، وهكذا في الآخرة فإنهم يجحدون أيضًا أن يكون جاءهم رسول.

كما قال البخاري:(١)

حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يجيء نوح عليه السلام وأمته، فيقول الله عزوجل: هل بلغت؟ فيقول: نعم أي: رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبى، فيقول لنوح: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فنشهد أنه قد بلغ. وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣]

والوسط: العدل.

فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق، بأن الله قد بعث نوحًا بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه وأتمها، ولم يدع شيئًا مما ينفعهم في دينهم إلا وقد أمرهم به، ولا شيئًا مما قد يضرهم إلا وقد نهاهم عنه، وحذرهم منه.

وهكذا شأن جميع الرسل(٢)، حتى إنه حذر قومه المسيح الدجال، وإن كان لا يتوقع خروجه في زمانهم؛ حذرا عليهم وشفقة ورحمة بهم.

---

(١) البخاري بر قم(٣٣٣٩)

(٢) روى الإمام مسلم في "صحيحه" (١٨٤٤)، عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه

كما قال البخاري(١): حدثنا عبدان، حدثنا عبد الله، عن يونس، عن الزهري، قال سالم قال ابن عمر: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال فقال: «إنى لأنذركموه، وما من نبي إلا وقد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، وإني أقول لكم فيه قولًا لم يقله نبي لقومه: تعلمون أنه أعور، وأن الله ليس بأعور». وهذا الحديث في "الصحيحين"(٢) أيضًا من حديث شيبان بن عبد الرحمن عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أحدثكم عن الدجال حديثًا ما حدث به نبي قومه؟ إنه أعور، وإنه يجئ معه بمثال الجنة والنار، والتي يقول عليها: الجنة هي النار، وإنى أنذركم كما أنذر به نوح قومه». لفظ البخاري.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ [المؤمنون:٢٦-٢٧] أي: بأمرنا لك، وبمرأى منا لصنعتك لها، ومشاهدتنا لذلك، لنرشدك إلى الصواب في صنعتها.

﴿فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [المؤمنون:٢٧].

وسلم قال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينـذرهم شر مـا يعلمـه لهم.

(١) البخاري (٣٣٣٧)، وهو في مسلم برقم (٢٩٣٠).

(٢) البخاري (٣٣٣٨)، ومسلم (٢٩٣٦).

فتقدم إليه بأمره العظيم العالي أنه إذا جاء أمره وحل بأسه، أن يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات، وسائر ما فيه روح من المأكولات وغيرها لبقاء نسلها، وأن يحمل معه أهله، أي: أهل بيته، إلَّا من سبق عليه القول منهم، أي: إلَّا من كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا ترد، ووجب عليه حلول البأس الذي لا يرد.

وأمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العذاب العظيم، الذي قد حتمه(١) عليهم الفعال لما يريد، كما قدمنا بيانه قبل.

والمراد بالتنور عند الجمهور: وجه الأرض، أي: نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التي هي محال النار.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠] هذا أمر بأنه عند حلول النقمة بهم أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ [هود: ٤٠] أي: من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر، فكان منهم ابنه: (يام) الذي غرق كما سيأتي بيانه.

﴿وَمَنْ آمَنَ﴾ أي: واحمل فيها من آمن بك من أمتك.

(١) حتمه أي: أوجبه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود:٤٠]. هذا مع طول المدة والمقام بين أظهرهم، ودعوتهم الأكيدة ليلًا ونهارًا بضروب(١) المقال وفنون التلطفات والتهديد والوعيد تارة، والترغيب والوعد أخرى.

قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ للهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ * وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٨-٢٩].

أمره أن يحمد ربه على ما سخر له من هذه السفينة، فنجاه بها وفتح بينه وبين قومه، وأقر عينه ممن خالفه وكذبه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ(٢) * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٢-١٤].

وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور: أن يكون على الخير والبركة، وأن تكون عاقبتها محمودة، كما قال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم حين هاجر: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا﴾ [الإسراء:٨٠] وقد امتثل نوح عليه السلام هذه الوصية: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ

---

(١) بضروب المقال أي: بأصناف وأنواع المقال.

(٢) مقرنين أي: مطيقين. كما في "تفسير بن كثير" رحمه الله.

الله مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] أي: على اسم الله ابتداء، سيرها وانتهاؤه.

﴿إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [هود:٤١] أي: وذو عقاب أليم، مع كونه غفورًا رحيمًا، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الذين كفروا به وعبدوا غيره.

قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢] وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطرًا لم تعهده الأرض قبله ولا تمطره بعده، كان كأفواه(١) القرب، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها(٢) وسائر أرجائها(٣).

كما قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ * فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ(٤) * وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ * وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ﴾ [القمر:١٠-١٣].

والدسر: المسامير. ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر:١٤]. أي: بحفظنا وكلاءتنا وحراستنا ومشاهدتنا لها: ﴿جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر:١٤].

وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١] أي: السفينة ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة:١٢].

---

(١) أفواه: جمع فاه وهو الفم.

(٢) الفجاج: جمع فج، وهو: الطريق الواسع بين جبلين. انظر "القاموس" (١٩٦).

(٣) أرجائها أي: نواحيها.

(٤) منهمر أي: كثير. كما في "تفسير بن كثير".

﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ * قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [هود:٤٢-٤٣].

وهذا الابن هو: (يام) أخو (سام - وحام - ويافث)، وقيل اسمه: كنعان(١).

وكان كافرًا عمل عملًا غير صالح، فخالف أباه في دينه، فهلك مع من هلك.

هذا وقد نجا مع أبيه الأجانب في النسب، لـما كانوا موافقين في الدين والمذهب.

﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود:٤٤].

أي: لـما فرغ من أهل الأرض، ولم يبق بها أحد ممن عبد غير الله عزوجل، أمر الله الأرض أن تبتلع ماءها، وأمر السماء أن تقلع أي: تمسك عن المطر، ﴿وَغِيضَ الْمَاءُ﴾ أي: نقص عما كان، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره؛ من إحلاله بهم ما حل بهم.

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي: نودي عليهم بلسان القدرة: بعدًا لهم من الرحمة والمغفرة.

---

(١) تعيين اسمه من الأخبار الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب ما لم يرد في شرعنا تصديقه فنصدقه به، أو ورد في شرعنا تكذيبه، فنكذب به وسيأتي الدليل على ذلك، إن شاء الله.

كما قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ(١)﴾ [الأعراف:٦٤].

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ(٢) وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [يونس:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنبياء:٧٧].

وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ(٣) الْمَشْحُونِ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١١٩-١٢٢].

وقال تعالى: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت:١٥]

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الشعراء:٦٦].

وقال: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٥-١٧].

وقال تعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا * وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا(٤) * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ

---

(١) عمين أي: عميان البصائر.

(٢) خلائف أي: خلفاء عن المغرقين، خلفوهم في عمارة الأرض.

(٣) الفلك أي: السفينة. المشحون أي: المملوء.

(٤) ديارًا أي: أحدًا يدور ويتحرك في الأرض.

يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٥-٢٧] وقد استجاب الله تعالى - وله الحمد والمنة - دعوته، فلم يبق منهم عين تطرف(١).

قصة هلاك عاد قوم هود عليه السلام

قال ابن كثير رحمه الله(٢):

والمقصود أن عادًا كانوا أول من عبد الأصنام بعد الطوفان.

فبعث الله فيهم أخاهم هودًا عليه السلام فدعاهم إلى الله، كما قال تعالى بعد ذكر قوم نوح، وما كان من أمرهم في سورة الأعراف:

﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ * أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي

---

(١) قال في "القاموس": وما بقيت منهم عين تطرف. أي: ماتوا وقتلوا، وطرف بعينه : حرك جفْنيها.

(٢) "قصص الأنبياء" (ص ١١٠-١٢٢).

أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٦٨-٧٢].

وقال تعالى بعد ذكر قصة نوح في سورة هود: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ * يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ * وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ * قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ * إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ * إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ * وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٥٠-٦٠].

وقال تعالى في سورة " قد أفلح المؤمنون " بعد قصة قوم نوح: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ * فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ

أَفَلا تَتَّقُونَ * وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣١-٤١].

وقال تعالى في سورة الشعراء بعد قصة قوم نوح أيضًا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٢٣-١٤٠].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا

يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

وقال تعالى في سورة الاحقاف: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢١-٢٥].

وقال تعالى في الذاريات: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ * مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤١-٤٢].

وقال تعالى في النجم: ﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى * وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى * وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَى * وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٠-٥٥].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ * تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ [القمر:١٨-٢٢].

وقال في الحاقة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ * سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ * فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

وقال في سورة الفجر: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ [الفجر:٦-١٤].

وقد تكلمنا على كل من هذه القصص في أماكنها من كتابنا التفسير. ولله الحمد والمنة.

وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت وفي سورة ص، وفي سورة ق. ولنذكر مضمون القصة مجموعًا من هذه السياقات، مع ما يضاف إلى ذلك من الأخبار.

وقد قدمنا أنهم أول الأمم الذين عبدوا الأصنام بعد الطوفان.

وذلك بين في قوله لهم: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً﴾ [الأعراف:٦٩] أي: جعلهم أشد أهل زمانهم في الخلقة والشدة والبطش.

وقال في المؤمنون: ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [المؤمنون:٣١] وهم قوم هود على الصحيح.

وزعم آخرون أنهم ثمود لقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً(١)﴾ [المؤمنون:٤١].

قالوا: وقوم صالح هم الذين أهلكوا بالصيحة: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦].

وهذا الذي قالوه لا يمنع من اجتماع الصيحة والريح العاتية عليهم كما سيأتي في قصة أهل مدين أصحاب الأيكة فإنه اجتمع عليهم أنواع من العقوبات، ثم لا خلاف أن عادًا قبل ثمود.

والمقصود أن عادًا كانوا جفاة(٢) كافرين، عتاة(٣) متمردين(٤) في عبادة الأصنام، فأرسل الله فيهم رجلاً منهم يدعوهم إلى الله وإلى إفراده بالعبادة والإخلاص له، فكذبوه وخالفوه وتنقصوه، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

فلما أمرهم بعبادة الله ورغبهم في طاعته واستغفاره، ووعدهم على ذلك خير الدنيا والآخرة، وتوعدهم على مخالفة ذلك عقوبة الدنيا والآخرة: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف:٦٦] أي: هذا الأمر الذي تدعونا إليه

---

(١) فجعلناهم غثاء: قال ابن كثير أي: صرعى هلكى كغثاء السيل، وهو الشيء الحقير، التافه، الهالك، الذي لا ينتفع بشيء منه.

(٢) جفاة: قال في "القاموس": ورجل جافي الخلقة والخلق: كز غليظ.

(٣) عتاة أي: مستكبرون مجاوزون للحد.

(٤) المتمرد: العاتي أو هو أن يبلغ الغاية التي يخرج بها من جملة ما عليه ذلك الصنف. انظر "القاموس" مادة: (مرد).

سفه[١] بالنسبة إلى ما نحن عليه من عبادة هذه الأصنام التي يرتجى منها النصر والرزق، ومع هذا نظن أنك تكذب في دعواك أن الله أرسلك.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٦٧]، أي: ليس الأمر كما تظنون ولا كما تعتقدون: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف:٦٨].

والبلاغ: يستلزم عدم الكذب في أصل المبلغ، وعدم الزيادة فيه والنقص منه، ويستلزم أداءه بعبارة فصيحة(٢) وجيزة(٣) جامعة مانعة لا لبس فيها ولا اختلاف ولا اضطراب.

وهو مع هذا البلاغ على هذه الصفة في غاية النصح لقومه والشفقة عليهم والحرص على هدايتهم، لا يبتغي منهم أجرًا ولا يطلب منهم جعلًا(٤)؛ بل هو مخلص لله عزوجل في الدعوة إليه والنصح لخلقه، لا يطلب أجره إلا من الذي أرسله، فإن خير الدنيا والآخرة كله في يديه وأمره إليه و لهذا قال: ﴿يَا قَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [هود:٥١] أي: أما لكم عقل تميزون به وتفهمون أنى أدعوكم إلى الحق المبين الذي تشهد به فطركم التي خلقتم عليها، وهو دين الحق الذي بعث الله به نوحًا وأهلك من خالفه من الخلق.

---

(١) السفه: خفة الحلم أو نقيضه، أو الجهل. انظر "القاموس" مادة: (سفه).

(٢) الفصاحة: البيان.

(٣) وجيزة: من أوجز الكلام: إذا قلله وقصره.

(٤) الجعل: هو ما يجعل على العمل.

وها أنا أدعوكم إليه ولا أسألكم أجرًا عليه، بل أبتغي ذلك عند الله مالك الضر والنفع.

ولهذا قال مؤمن " يس ": ﴿اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۞ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس:٢١-٢٢] وقال قوم هود له فيما قالوا: ﴿يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ۞ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ [هود:٥٣-٥٤]، يقولون: ما جئتنا بخارق يشهد لك بصدق ماجئت به، وما نحن بالذين نترك عبادة أصنامنا عن مجرد قولك؛ بلا دليل أقمته ولا برهان نصبته، وما نظن إلا أنك مجنون فيما تزعمه.

وعندنا أنه إنما أصابك هذا لأن بعض آلهتنا غضب عليك فأصابك في عقلك فاعتراك جنون بسبب ذلك.

وهو قولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۞ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ﴾ [هود:٥٤-٥٥].

وهذا تحد منه لهم، وتبرؤٌ من آلهتهم وتنقص منه لها، وبيان أنها لا تنفع شيئًا ولا تضر، وأنها جماد حُكْمُها حُكْمُه وفِعْلُها فِعْلُه. فإن كانت كما تزعمون من أنها تنصر وتنفع وتضر فها أنا برئ منها لاعن لها: فكيدوني ثم لا تنظرون(١) أنتم جميعًا بجميع ما يمكنكم أن تصلوا إليه وتقدروا عليه، ولا تؤخروني ساعة واحدة ولا طرفة عين فإنى لا أبالي بكم ولا أفكر فيكم، ولا أنظر إليكم.

﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [هود:٥٦] أي: أنا متوكل على الله ومتأيد به، وواثق بجنابه الذي لا يضيع من لَاذَ بِهِ(٢) واستند إليه، فلست أبالي مخلوقًا سواه، لست أتوكل إلا عليه ولا أعبد إلا إياه.

وهذا وحده برهان قاطع على أن هودًا عَبْدُ الله ورسوله، وأنهم على جهل وضلال في عبادتهم غير الله؛ لأنهم لم يصلوا إليه بسوء ولا نالوا منه مكروها، فدل على صدقه فيما جاءهم به، وبطلان ما هم عليه وفساد ما ذهبوا إليه.

وهذا الدليل بعينه قد استدل به نوح عليه السلام قبله في قوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنْ كَانَ كَبُرَ(٣) عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآَيَاتِ اللهِ فَعَلَى اللهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ(٤)

---

(١) ثم لا تنظرون أي: لا تمهلوني وتؤخروني.

(٢) لاذ به أي: لجأ إليه وعاذ به.

(٣) كبر عليكم أي: عظم وشق عليكم.

(٤) فأجمعوا أمركم أي: اعزموا وصمموا على كيدكم.

وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً(١) ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ﴾ [يونس:٧١].

وهكذا قال الخليل عليه السلام: ﴿وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام:٨٠-٨٣].

﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ(٢) فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ * وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ﴾ [المؤمنون:٣٣-٣٥].

استبعدوا أن يبعث الله رسولًا بشريًا.

وهذه الشبهة أدلى بها كثير من جهلة الكفرة قديمًا وحديثًا، كما قال تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس:٢] وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللهُ بَشَرًا رَسُولًا *

---

(١) غمة أي: ضيقًا شديدًا.

(٢) وأترفناهم أي: نعمناهم ووسعنا عليهم.

قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ(١) لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء:٩٤-٩٥].

ولهذا قال لهم هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾ [الأعراف:٦٣] أي: ليس هذا بعجيب؛ فإن الله أعلم حيث يجعل رسالته.

وقوله: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُمْ مُخْرَجُونَ * هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ * إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ * إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ [المؤمنون:٣٥-٣٩] استبعدوا الميعاد وأنكروا قيام الأجساد بعد صيرورتها ترابًا وعظامًا، وقالوا: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾، أي: بعيد بعيد هذا الوعد، ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ [المؤمنون:٣٧] أي: يموت قوم ويحيا آخرون.

---

(١) مطمئنين أي: ساكنين في الأرض قارين.

وهذا هو اعتقاد الدهرية(١)، كما يقول بعض الجهلة من الزنادقة: أرحام تدفع وأرض تبلع.

وأما الدورية فهم الذين يعتقدون أنهم يعودون إلى هذه الدار بعد كل ستة وثلاثين ألف سنة.

وهذا كله كذب وكفر وجهل وضلال، وأقوال باطلة وخيال فاسد بلا برهان ولا دليل، يستميل عقل الفجرة الكفرة من بني آدم الذين لا يعقلون ولا يهتدون، كما قال تعالى: ﴿وَلِتَصْغَى(٢) إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا(٣) مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١١٣].

وقال لهم فيما وعظهم به: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ [الشعراء:١٢٨-١٢٩].

يقول لهم: أتبنون بكل مكان مرتفع بناء عظيمًا هائلًا كالقصور ونحوها، تعبثون ببنائها لأنه لا حاجة لكم فيه، وما ذاك إلا لأنهم كانوا يسكنون الخيام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ﴾ [الفجر:٦-٧] فعاد إرم هم الذين كانوا يسكنون الأعمدة التي تحمل الخيام.

---

(١) الدَّهري: بالفتح والضم، هو القائل ببقاء الدهر. انظر "القاموس" مادة: (دهر).

(٢) ولتصغى إليه أي: تميل إليه قلوبهم.

(٣) وليقترفوا أي: يكتسبوا من الآثام.

ومن زعم أن ﴿إِرَمَ﴾ مدينة من ذهب وفضة وهي تنتقل في البلاد، فقد غلط وأخطأ، وقال ما لا دليل عليه.

وقوله: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء:١٢٩] قيل: هي القصور، وقيل بروج الحمام وقيل مآخذ الماء: ﴿لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ أي: رجاء منكم أن تُعَمَّروا في هذه الدار أعمارًا طويلة: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ * أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٣٠-١٣٥].

وقالوا له مما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الأعراف:٧٠] أي: أجئتنا لنعبد الله وحده، ونخالف آباءنا وأسلافنا وما كانوا عليه؟ فإن كنت صادقًا فيما جئت به فأتنا بما تعدنا من العذاب والنكال، فإنا لا نؤمن بك ولا نتبعك ولا نصدقك.

كما قالوا: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ * إِنْ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ * وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:١٣٦-١٣٨].

أما على قراءة فتح الخاء، فالمراد به اختلاق الأولين، أي: إن هذا الذي جئت به إلَّا اختلاق منك، أخذته من كتب الأولين.

هكذا فسره غير واحد من الصحابة والتابعين.

وأما على قراءة ضم الخاء واللام - فالمراد به الدين؛ أي: إن هذا الدين الذي نحن عليه إلا دين الأولين الآباء والأجداد من الأسلاف، ولن نتحول عنه ولا نتغير، ولا نزال متمسكين به.

ويناسب كلا القراءتين الأولى والثانية قولهم: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾.

قال: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف:٧١] أي: قد استحقَقْتم بهذه المقالة الرجس والغضب من الله، أتعارضون عبادة الله وحده لا شريك له بعبادة أصنام أنتم نحتموها وسميتموها آلهة من تلقاء أنفسكم؟ اصطلحتم عليها أنتم وآباؤكم، ما نزل الله بها من سلطان. أي لم يُنزل على ما ذهبتم إليه دليلًا ولا برهانًا.

وإذا أبيتم قبول الحق وتماديتم في الباطل، وسواء عليكم أنهيتكم عما أنتم فيه أم لا، فانتظروا الآن عذاب الله الواقع بكم، وبأسه الذي لا يرد ونكاله الذي لا يصد.

وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ * قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٣٩-٤١].

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا(١) عَنْ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ * فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا(٢) مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ(٣) كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٢-٢٥].

وقد ذكر الله تعالى خبر إهلاكهم في غير ما آية كما تقدم مجملًا ومفصلًا، كقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٧٢].

وكقوله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ * وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ * وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ﴾ [هود:٥٨-٦٠].

وكقوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٤١].

---

(١) لتأفكنا أي: لتصرفنا.

(٢) عارضًا: سحابًا يعرض في الأفق.

(٣) تدمر أي: تهلك كل ما يقبل الهلاك والتدمير.

وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٣٩-١٤٠].

وأما تفصيل إهلاكهم فكما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤] كان هذا أول ما ابتدأهم العذاب، أنهم كانوا ممحلين(١) مسنتين، فطلبوا السقيا فرأوا عارضًا في السماء وظنوه سقيا رحمة، فإذا هو سقيا عذاب.

ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف:٢٤] أي: من وقوع العذاب. وهو قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ومثلها في الأعراف.

و قد أهلكوا بريح صرصر.

قال ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من أئمة التابعين: هي الباردة، والعاتية الشديدة الهبوب. ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧] أي: كوامل متتابعات.

﴿فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ(٢) نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة:٧] شبههم بأعجاز النخل التي لا رءوس لها، وذلك لأن الريح كانت تجيء إلى أحدهم فتحمله فترفعه في الهواء؛ ثم تنكسه على أم رأسه فتشدخه فيبقى جثة بلا رأس، كما قال: ﴿إِنَّا

---

(١) ممحلين مسنتين: معناهما مجدبين. كما في "القاموس".

(٢) أعجاز نخل أي: جذوع نخل بلا رؤوس.

أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩] أي: في يوم نحس عليهم، مستمر عذابه عليهم.

﴿تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ(١)﴾ [القمر:٢٠] ومن قال: إن اليوم النحس المستمر هو يوم الأربعاء وتشاءم به لهذا الفهم، فقد أخطأ وخالف القرآن(٢)؛ فإنه قال في الآية الأخرى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ [فصلت:١٦] ومعلوم أنها ثمانية أيام متتابعات، فلو كانت نحسات في أنفسها لكانت جميع الأيام السبعة المندرجة فيها مشؤومة، وهذا لا يقوله أحد، وإنما المراد في أيام نحسات(٣)، أي: عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات:٤١] أي: التي لا تنتج خيرًا، فإن الريح المفردة لا تثير سحابًا ولا تلقح شجرًا، بل هي عقيم لا نتيجة خير لها، ولهذا قال: ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات:٤٢] أي: كالشيء البالي الفاني الذي لا ينتفع به بالكلية.

---

(١) منقعر أي: منقلع عن قعره ومغرسه.

(٢) وأما حديث: «يوم الأربعاء يوم نحس مستمر» فهو حديث ضعيف جدًّا، رواه الطبراني في "الأوسط" (٦٤٢٢)، عن جابر رضي الله عنه ومداره على إبراهيم بن أبي حية، قال فيه الدارقطني: متروك. والحديث أورده ابن الجوزي في "الموضوعات" (٢/ ٣٤٦).

(٣) نحسات أي: مشؤومات عليهم.

وقد ثبت في "الصحيحين"(١) من حديث شعبة عن الحكم عن مجاهد عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «نصرت بالصبا(٢)، وأهلكت عاد بالدبور».

وأما قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف:٢١] فالظاهر أن عادًا هذه هي عاد الأولى؛ فإن سياقها شبيه بسياق قوم هود وهم الأولى.

(١) البخاري (١٠٣٥)، ومسلم (٩٠٠).

(٢) الصبا: هي الريح الشرقية. والدبور: الريح الغربية. انظر شرح النووي على "صحيح مسلم" (٦/ ٤٣٧).

ويحتمل أن يكون المذكورون في هذه القصة هم عاد الثانية(١).

وأما قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف:٢٤] فإن عادًا لما رأوا هذا العارض وهو الناشئ في الجو كالسَّحاب ظنوه سحاب مطر، فإذا هو سحاب عذاب، اعتقدوه رحمة فإذا هو نقمة، رجوا فيه الخير فنالوا منه غاية الشر.

قال الله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ﴾ [الأحقاف:٢٤] أي: من العذاب، ثم فسره بقوله: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف:٢٤] يحتمل أن ذلك العذاب هو ما أصابهم من الريح الصرصر العاتية الباردة الشديدة الهبوب، التي استمرت عليهم سبع ليال بأيامها الثمانية، فلم تبق منهم أحدًا، بل تَتَبَّعَتْهُم حتى كانت تدخل عليهم

---

(١) القول بأن هناك عاد أولى وعاد ثانية غير صواب،إذ ليس عليه دليل من كتاب ولا من سنة صحيحة، والصواب المقطوع به، أنه ليس هناك عاد إلا قوم هود عليه السلام، وأما قوله تعالى: (وأنه أهلك عادًا الأولى) فقد قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: إنما قيل لعاد الأولى لأنها أول الأمم هلاكًا، أي: بعد قوم نوح. رواه ابن جرير (٢٢/ ٨٨) بإسناد صحيح.

وبقول ابن زيد: قال الجمهور من المفسرين:

وقال ابن عاشور في التحرير والتنوير (١١/ ١٥٣): ووصف عاد بالأولى على اعتبار عاد اسمًا للقبيلة كما هو ظاهر معنى كونها أولى لأنها أول العرب ذكراً وهم أول العرب البائدة، وهم أول أمة أهلكت بعد قوم نوح، وأما القول بأن عادًا هذه لما أهلكت خلفها أمة أخرى تعرف بعاد إرم، أو عاد الثانية، كانت في زمن العماليق، فليس بصحيح، ويجوز أن يكون الأولى وصفًا كاشفًا أي: عادًا السابقة، وقيل: الأولى صفة عظمة. أي: الأولى في مراتب الأمم قوة وسعة.

كهوف(١) الجبال والغيران فَتَلُفُّهُمْ وتخرجهم وتهلكهم، وتدمر عليهم البيوت المحكمة(٢) والقصور المشيدة(٣)، فكما مَنُّوا بشدتهم وبقوتهم وقالوا: من أشد منا قوة؟! سلط الله عليهم ما هو أشد منهم قوة، وأقدر عليهم، وهو الريح العقيم(٤).

ويحتمل أن هذه الريح أثارت في آخر الأمر سحابة، ظن من بقي منهم أنها سحابة فيها رحمة بهم وغياث لمن بقي منهم، فأرسلها الله عليهم شررًا ونارًا، كما ذكره غير واحد.

ويكون هذا كما أصاب أصحاب الظلة من أهل مدين، وجمع لهم بين الريح الباردة وعذاب النار، وهو أشد ما يكون من العذاب بالأشياء المختلفة المتضادة، مع الصيحة التي ذكرها في سورة قد أفلح المؤمنون. والله أعلم.

---

(١) كهوف الجبال: قال في "القاموس" : الكهف كالبيت المنقور في الجبل، جمعه كهوف، أو كالغار في الجبل إلا أنه واسع، فإذا صغر فغار.

(٢) المحكمة أي: المتقنة.

(٣) المشيدة أي: الرفيعة المنيعة.

(٤) الريح العقيم. أي: المهلكة لهم، القاطعة لنسلهم.

قصة هلاك ثمود قوم صالح عليه السلام

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):

وهم قبيلة مشهورة، يقال لهم: ثمود باسم جدهم ثمود أخي جديس، وهما ابنا عاثر بن إرم بن سام بن نوح.

وكانوا عربًا من العاربة(٢)، يسكنون الحجر الذي بين الحجاز(٣) وتبوك.

وقد مر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ذاهب إلى تبوك بمن معه من المسلمين(٤).

وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام كأولئك.

فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو عبد الله ورسوله: صالح بن عبيد بن ماسح بن عبيد بن حادر بن ثمود بن عاثر بن إرم بن نوح فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا

---

(١) "قصص الأنبياء" (ص: ١٢٧-١٣٥).

(٢)إنما سموا بالعرب العاربة.لأنهم كانوا قوماً عرباً يتكلمون بهذا اللسان المضري، فكانت العرب تقول لهذه الأمم: العرب العاربة، لأنه لسانهم الذي جبلوا عليه، ويقولون لبني إسماعيل بن إبراهيم: العرب المتعربة، لأنهم إنما تكلموا بلسان هذه الأمم حين سكنوا بين أظهرهم .انظر"تاريخ الرسل والملوك"(١/ ٧٥)لابن جرير رحمه الله

(٣) الحجاز: مكة والمدينة والطائف، ومخاليفها، لأنها حجزت بين نجد وتهامة، أو بين نجد والسراة، أو لأنها احتجزت بالحرار الخمس: حرة بني سليم، وواقم، وليلى، وسوران، والنار. انظر "القاموس" مادة: (حجز).

(٤) رواه البخاري (٣٣٧٨)عن ابن عمررضي الله عنه .

شريك له، وأن يخلعوا الأصنام والأنداد ولا يشركوا به شيئًا، فآمنت به طائفة منهم، وكفر جمهورهم(١)، ونالوا منه بالمقال والفعال، وهموا بقتله، وقتلوا الناقة التي جعلها الله حجة عليهم، فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر. كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف:٧٣-٧٩].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ * قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى

---

(١) الجُمهور من الناس: جُلهم. ومعظم كل شيء. انظر "القاموس" (٣٤٥).

بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ * وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ * فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود:٦١-٦٨].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ * وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ * فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الحجر:٨٠-٨٤].

وقال سبحانه وتعالى في سورة سبحان: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ * وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ *

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآَيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ * فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ * فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٤١-١٥٩].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ * قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ * قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ * وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ * قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٤٥-٥٣].

وقال تعالى في سورة حم السجدة: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت:١٧-١٨].

وقال تعالى في سورة اقتربت: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ * فَقَالُوا أَبَشَرًا مِنَّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ * أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ * سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ * إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ *

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ * فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر: ٢٣-٣٢].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١١-١٥].

وكثيرًا ما يقرن الله في كتابه بين ذكر عاد وثمود، كما في سورة براءة وإبراهيم والفرقان، وسورة ص، وسورة ق، والنجم والفجر.

ويقال: إن هاتين الأمتين لا يعرف خبرهما أهل الكتاب، وليس لهما ذكر في كتابهم التوراة.

ولكن في القرآن ما يدل على أن موسى أخبر عنهما، كما قال تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [إبراهيم:٨- ٩] الآية.

الظاهر أن هذا من تمام كلام موسى مع قومه، ولكن لما كان هاتان الأمتان من العرب لم يضبطوا خبرهما جيدًا، ولا اعتنوا بحفظه، وإن كان خبرهما كان مشهورًا في زمان موسى عليه السلام.

وقد تكلمنا على هذا كله في التفسير مستقصى. ولله الحمد والمنة.

والمقصود الآن ذكر قصتهم وما كان من أمرهم، وكيف نجى الله نبيه صالحا عليه السلام ومن آمن به، وكيف قطع دابر القوم الذين ظلموا بكفرهم وعتوهم، ومخالفتهم رسولهم عليه السلام.

وقد قدمنا أنهم كانوا عربًا، وكانوا بعد عاد ولم يعتبروا بما كان من أمرهم.

ولهذا قال لهم نبيهم عليه السلام: ﴿اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا(١) قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٤] أي: إنما جعلكم خلفاء من بعدهم لتعتبروا بما كان من أمرهم، وتعملوا بخلاف عملهم.

وأباح لكم هذه الأرض تبنون في سهولها القصور، ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ﴾ [الشعراء:١٤٩] أي: حاذقين في صنعتها وإتقانها وإحكامها.

---

(١) سهول الأرض ترابها يتخذون منه اللبِن والآجُر، ونحو ذلك، فيبنون به القصور، (وتنحتون الجبال بيوتًا)، أي: تتخذون في الجبال التي هي صخور بيوتًا تسكنون فيها.

فقابلوا نعمة الله بالشكر والعمل الصالح، والعبادة له وحده لا شريك له، وإياكم ومخالفته والعدول عن طاعته، فإن عاقبة ذلك وخيمة.

ولهذا وعظهم بقوله: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ * فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ﴾ [الشعراء:١٤٦-١٤٨] أي: متراكم كثير حسن بهى(١) ناضج.

﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ * الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء:١٤٩-١٥٢].

وقال لهم أيضًا: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١] أي: هو الذي خلقكم فأنشأكم من الأرض، وجعلكم عمارها، أي: أعطاكموها بما فيها من الزروع والثمار، فهو الخالق الرزاق، وهو الذي يستحق العبادة وحده لا ما سواه.

﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾ [هود:٦١] أي: أقلعوا عما أنتم فيه وأقبلوا على عبادته، فإنه يقبل منكم ويتجاوز عنكم: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾ [هود:٦١].

﴿قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾ [هود:٦٢] أي: قد كنا نرجو أن يكون عقلك كاملًا قبل هذه المقالة، وهى دعاؤك إيانا إلى إفراد العبادة، وترك ما كنا

---

(١) البهاء: الحسن.

نعبده من الأنداد، والعدول(١) عن دين الآباء والأجداد ولهذا قالوا: ﴿أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾ [هود:٦٢].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود:٦٣].

وهذا تلطف منه لهم في العبارة ولين الجانب، وحسن تأت في الدعوة لهم إلى الخير.

أي: فما ظنكم إن كان الأمر كما أقول لكم وأدعوكم إليه؟ ماذا عذركم عند الله؟ وماذا يخلصكم بين يديه وأنتم تطلبون مني أن أترك دعاءكم إلى طاعته؟ وأنا لا يمكنني هذا لأنه واجب علي، ولو تركته لما قدر أحد منكم ولا من غيركم أن يجيرني منه ولا ينصرني، فأنا لا أزال أدعوكم إلى الله وحده لا شريك له، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

وقالوا له أيضًا: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء:١٥٣] أي: من المسحورين، يعنون مسحورًا لا تدري ما تقول في دعائك إيانا إلى إفراد العبادة لله وحده، وخلع ما سواه من الأنداد.

---

(١) العدول. أي: الميل.

وهذا القول عليه الجمهور، وهو أن المراد بالمسحرين المسحورين.

وقيل من المسحرين: أي: ممن له سحر – وهو الرَّئِيِّ(١) – كأنهم يقولون إنما أنت بشر له سحر.

والأول أظهر لقولهم بعد هذا: ﴿مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [الشعراء:١٥٤] وقولهم: ﴿فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [الشعراء:١٥٤] سألوا منه أن يأتيهم بخارق يدل على صدق ما جاءهم به.

﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ * وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء:١٥٥– ١٥٦] كما قال: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ الله لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف:٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً(٢) فَظَلَمُوا بِهَا﴾ [الإسراء:٥٩] أي: جحدوا بها ولم يتبعوا الحق بسببها،أي: أكثرهم.

ولهذا قال لهم صالح عليه السلام: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ الله﴾ [هود:٦٤] أضافها لله سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتعظيم، كقوله: بيت الله، و عبد الله.

﴿لَكُمْ آيَةً﴾ أي: دليلًا على صدق ما جئتكم به: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ الله وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤].

---

(١)الرَّئِيُّ:الجني يعرض للإنسان ويطلعه على ما يزعم من الغيب.

(٢)"مبصرة"أي:آية بينة واضحة

فاتفق الحال على أن تبقى هذه الناقة بين أظهرهم، ترعى حيث شاءت من أرضهم، وترد الماء يومًا بعد يوم، وكانت إذا وردت(١) الماء تشرب ماء البئر يومها ذلك، فكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم لغدهم.

ويقال: إنهم كانوا يشربون من لبنها كفايتهم، ولهذا قال: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء:١٥٥].

ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ﴾ [القمر:٢٧] أي: اختبارًا لهم أيؤمنون بها أم يكفرون؟ والله أعلم بما يفعلون.

﴿فَارْتَقِبْهُمْ﴾ [القمر:٢٧] أي: انتظر ما يكون من أمرهم.

﴿وَاصْطَبِرْ﴾ [القمر:٢٧] على أذاهم فسيأتيك الخبر على جلية(٢)

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ(٣) بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ﴾ [القمر:٢٨].

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع ملؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوفر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم.

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

---

(١) وردت. أي: حضرت.

(٢) الجلية: الخبر اليقين. انظر "الصحاح" مادة: (جلا).

(٣) (قسمة بينهم) أي: مقسوم بينهم وبين الناقة، (كل شرب) أي: كل نصيب، وحصة من الماء، (محتضر) أي: يحضره صاحبه في نوبته.

وقال الله تعالى: ﴿فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى(١) فَعَقَرَ * فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر:٢٩-٣٠].

وقال الله تعالى: ﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ نَاقَةَ اللهِ وَسُقْيَاهَا [الشمس:١٢-١٣] أي: احذروها(٢): ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ(٣) رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾ [الشمس:١٤-١٥].

قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الله بن نمير، حدثنا هشام - أبو عروة - عن أبيه عن عبد الله بن زمعة قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الناقة وذكر الذي عقرها فقال:﴿إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾ [الشمس:١٢]: انبعث لها رجل عارم عزيز منيع في رهطه، مثل أبي زمعة، أخرجاه(٤) من حديث هشام به.

عارم: أي: شهم.

عزيز أي: رئيس منيع: أي: مطاع في قومه.

وقال تعالى: ﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٧٧].

---

(١) (فتعاطى). أي: فتناول الناقة بسيفه.

(٢) أي: احذوا عقرها ونصيبها من الماء.

(٣) (فدمدم عليهم). أي: أهلكهم وأطبق العذاب عليهم. (فسواها) أي: فجعل الدمدمة عليهم سواء، (ولا يخاف عقباها) أي: عاقبة هذه العقوبة.

(٤) رواه البخاري(٣٣٧٧)ومسلم(٢٨٥٥)

فجمعوا في كلامهم هذا بين كفر بليغ من وجوه: منها: أنهم خالفوا الله ورسوله في ارتكابهم النهي الأكيد في عقر الناقة التي جعلها الله لهم آية.

ومنها: أنهم استعجلوا وقوع العذاب بهم فاستحقوه من وجهين:

أحدهما: الشرط عليهم في قوله: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ﴾ [هود:٦٤] وفي آية: ﴿عَظِيمٍ﴾ وفي الأخرى: ﴿أَلِيمٌ﴾ والكل حق.

والثاني: استعجالهم على ذلك.

ومنها: أنهم كذبوا الرسول الذي قد قام الدليل القاطع على نبوته وصدقه، وهم يعلمون ذلك علمًا جازمًا، ولكن حملهم الكفر والضلال والعناد على استبعاد الحق ووقوع العذاب بهم.

فلهذا قال لهم صالح: ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود:٦٥] أي: غير يومهم ذلك، فلم يصدقوه أيضًا في هذا الوعد الأكيد.

بل لما أمسوا هموا بقتله وأرادوا - فيما يزعمون- أن يلحقوه بالناقة.

﴿قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ [النمل:٤٩] أي: لنكبسنه في داره مع أهله فلنقتلنه، ثم نجحدن قتله ولننكرن ذلك إن طالبنا أولياؤه بدمه.

ولهذا قالوا: ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل:٤٩].

قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ * فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [النمل:٥٠-٥٣].

وذلك أن الله تعالى أرسل على أولئك النفر الذين قصدوا قتل صالح حجارة رضختهم [فأهلكهم] سلفًا وتعجيلًا قبل قومهم، وأصبحت ثمود يوم الخميس – وهو اليوم الأول من أيام النظرة– ووجوههم مصفرة، كما أنذرهم صالح عليه السلام.فلما أمسوا نادوا بأجمعهم: ألا قد مضى يومٌ من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثاني من أيام التأجيل – وهو يوم الجمعة– ووجوههم محمرة، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى يومان من الأجل.

ثم أصبحوا في اليوم الثالث من أيام المتاع – وهو يوم السبت– ووجوههم مسودة(١)، فلما أمسوا نادوا: ألا قد مضى الأجل.

فلما كان صبيحة يوم الأحد تحنطوا وتأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب والنكال والنقمة، لا يدرون كيف يفعل بهم؟ ولا من أي: جهة يأتيهم العذاب.

فلما أشرقت الشمس جاءتهم صيحة من السماء من فوقهم، ورجفة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح وزهقت النفوس، وسكنت الحركات، وخشعت الأصوات، وحقت الحقائق، فأصبحوا في دارهم جاثمين، جثثًا لا أرواح فيها ولا حراك بها.

قال الله تعالى: ﴿كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا﴾ [هود:٦٨] أي: لم يقيموا فيها في سعة ورزق وغناء، ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ﴾ [هود:٦٨] أي: نادى عليهم لسان القدر بهذا.

---

(١) تحديد الأيام وتحديد صفة وجوههم في اليوم الأول والثاني والثالث يحتاج إلى دليل.

قصة هلاك قوم لوط عليه السّلام

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):

ومما وقع في حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة: قصة قوم لوط عليه السَّلام، وما حل بهم من النقمة العميمة.

وذلك أن لوطًا بن هاران بن تارح - وهو آزر كما تقدم- ولوط ابن أخي إبراهيم الخليل فإبراهيم وهاران وناحور إخوة كما قدمنا، ويقال: إن هاران هذا هو الذي بنى حران(٢).

وهذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب(٣)، والله تعالى أعلم.

---

(١) "قصص الأنبياء" (صـ٢٠٨- ٢٢٠).

(٢) حران: قرية بحلب وبغوطة دمشق. انظر "القاموس" مادة: (حرر).

(٣) القول باستضعاف هذا الكلام لمخالفته ما بأيدي أهل الكتاب غير صحيح، لأن الذي في أيدي أهل الكتاب قد حرف وبدل، قال الله تعالى: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفوه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون) وقال تعالى: (ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك يحرفون الكلم من بعد مواضعه) وقال تعالى: (وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون). وأخبار أهل الكتاب لا يجوز لأحد تصديقها إلا إذا ورد في شرعنا تصديقها، فالاعتماد على ما في شرعنا ولا يجوز لأحد تكذيبها إلا إذا ورد في شرعنا تكذيبها، والدليل على ذلك ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بما أنزل إلينا وما أنزل إليكم».

وكان لوط قد نزح(١) عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له وإذنه، فنزل بمدينة سدوم(٢) من أرض غور زغر، وكان أم تلك المحلة ولها أرض ومعتملات وقرى مضافة إليها.

ولها أهل من أفجر الناس وأكفرهم وأسوأهم طوية(٣)، وأردئهم سريرة وسيرة، يقطعون السبيل(٤) ويأتون في ناديهم(٥) المنكر، ولا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون.

---

(١) نزح. أي: بعد. انظر "القاموس" مادة: (نزح).

(٢) هذا غلط والصواب: سذوم، بالذال، وهي بلدة بحمص. انظر "القاموس" مادة: (سدم).

(٣) الطوية: الضمير والنية. انظر "القاموس".

(٤) السبيل: الطريق.

(٥) النادي: مجلس القوم ومتحدثهم.

ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بني آدم، وهى إتيان الذكران من العالمين، وترك ما خلق الله من النسوان لعباده الصالحين.

فدعاهم لوط إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه المحرمات والفواحش المنكرات، والأفاعيل المستقبحات فتمادوا على ضلالهم وطغيانهم، واستمروا على فجورهم وكفرانهم، فأحل الله بهم من البأس الذي لا يرد ما لم يكن في خلدهم(١) وحسبانهم(٢)، وجعلهم مثلة في العالمين، وعبرة يتعظ بها الألباء(٣) من العالمين.

ولهذا ذكر الله تعالى قصتهم في غير ما موضع في كتابه المبين.

فقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٠-٨٤].

وقال تعالى في سورة هود: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ * فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ

---

(١) الخلد: البال والقلب والنفس. انظر "القاموس" مادة: (خلد).

(٢) في حسبانهم. أي: في ظنهم.

(٣) الألباء. أي: العقلاء.

مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ * وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ * قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ * فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ * إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ * وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ * قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ * قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ * قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ * فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[هود:٦٩-٨٣].

وقال تعالى في سورة الحجر: ﴿وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ * إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ * قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ * قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ * قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ * قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا

الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ * فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ * قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ * قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ * وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ * فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ * وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ * وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٥١-٧٧].

وقال تعالى في سورة الشعراء: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ * قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ * قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ * رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ * فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٦٠-١٧٥].

وقال تعالى في سورة النمل: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ * فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ * وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [النمل:٥٤-٥٨].

وقال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٨-٣٥].

وقال تعالى في سورة الصافات: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ * وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٣-١٣٨].

وقال تعالى في الذاريات بعد قصة ضيف إبراهيم وبشارتهم إياه بغلام عليم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ * فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣١-٣٧].

وقال في سورة القمر: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ * إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ * نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ * وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ * فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:٣٣-٤٠].

وقد تكلمنا على هذه القصص في أماكنها من هذه السور في "التفسير".

وقد ذكر الله لوطًا وقومه في مواضع أخر من القرآن، تقدم ذكرها مع نوح وعاد وثمود.

والمقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، وما أحل الله بهم، مجموعًا من الآيات والآثار. وبالله المستعان.

وذلك أن لوطًا عليه السلام لما دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي ما ذكر الله عنهم من الفواحش، لم يستجيبوا له ولم يؤمنوا به حتى ولا رجل واحد منهم، ولم يتركوا ما عنه نهوا؛ بل استمروا على حالهم، ولم يرعووا(١) عن غيهم(٢) وضلالهم، وهموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم.

وما كان حاصل جوابهم عن خطابهم - إذ كانوا لا يعقلون- ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل:٥٦] فجعلوا غاية المدح ذمًّا يقتضي الإخراج! وما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد واللجاج(٣).

فطهره الله وأهله إلا امرأته، وأخرجهم منها أحسن إخراج، وتركهم في محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم في الحقيقة نار تأجج(٤)، وحر يتوهج،

---

(١) يرعووا. أي: يكفوا. انظر "الصحاح" مادة: (رعي).

(٢) الغي: الضلال والخيبة. انظر "الصحاح" مادة (غوي).

(٣) اللجاج: الخصومة. انظر "القاموس" مادة: (لجج).

(٤) تأجج. أي: تلتهب.

وماؤها ملح أجاج(١).

وما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن ارتكاب الطامة العظمى، والفاحشة الكبرى، التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين أهل الدنيا. ولهذا صاروا مثلة فيها وعبرة لمن عليها، وكانوا مع ذلك يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم، وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم، المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه.

حتى قيل إنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحون من مجالسيهم، وربما وقع منهم الفعلة العظيمة في المحافل ولا يستنكفون(٢)، ولا يرعوون لوعظ واعظ ولا نصيحة من عاقل.

وكانوا في ذلك وغيره كالأنعام بل أضل سبيلًا، ولم يقلعوا عمَّا كانوا عليه في الحاضر، ولا ندموا على ما سلف من الماضي، ولا راموا(٣) في المستقبل تحويلًا، فأخذهم الله أخذًا وبيلًا(٤).

وقالوا له فيما قالوا: ﴿ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [العنكبوت:٢٩] فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم، وحلول البأس العظيم.

---

(١) أجاج. أي: ملح مر.

(٢) ولا يستنكفون. أي: لا يأنفون من ذلك ولا يمتنعون.

(٣) المرام: هو الطلب. انظر "القاموس" مادة: (روم).

(٤) وبيلاً. أي: شديدًا ثقيلًا.

فعند ذلك دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين وإله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين.

فغار الله لغيرته، وغضب لغضبته؛ واستجاب لدعوته، وأجابه إلى طلبته، وبعث رسله الكرام، وملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم وبشروه بالغلام العليم، وأخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم(١) والخطب(٢) العميم: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ(٣) أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ * قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ * لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ * مُسَوَّمَةً(٤) عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات:٣١-٣٤] وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ(٥)﴾ [العنكبوت:٣١-٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ(٦) وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود:٧٤].

---

(١) الجسيم. أي: العظيم.

(٢) الخطب: الشأن والأمر صغُر أو عظُم جمعه خطوب. انظر "القاموس" مادة: (خطب).

(٣) (فما خطبكم) أي: فما شأنكم.

(٤) مسومة. أي: معلمة بأنها حجارة عذاب.

(٥) الغابرين. أي: الباقين في العذاب.

(٦) الروع. أي: الخوف والفزع.

وذلك أنه كان يرجو أن يجيبوا أو ينيبوا ويسلموا ويقلعوا ويرجعوا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ(١) مُنِيبٌ * يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود:٧٥- ٧٦] أي: أعرض عن هذا وتكلم في غيره؛ فإنه قد حتم أمرهم، ووجب عذابهم وتدميرهم وهلاكهم ﴿إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي: قد أمر به من لايرد أمره، ولا يرد بأسه، ولا معقب(٢) لحكمه.

﴿وَإِنَّهُمْ آَتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧].

قال المفسرون: لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، في صور شُبَّان حسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط، وإقامةً للحجة عليهم.

فاستضافوا لوطًا عليه السلام، وذلك عند غروب الشمس، فخشي إن لم يضفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس، و﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود:٧٧] قال ابن عباس ومجاهد وقتادة ومحمد بن إسحق: شديدٌ بلاؤُه.

---

(١) أواه: كثير الدعاء، قيل: رحيم بعباد الله، وقيل: كثير الذكر لله. وقيل: الذي يكثر التلاوة، وقيل غير ذلك. (منيب) أي: راجع إلى الله سبحانه.

(٢) أي: لا مؤخر لحكمه.

وذلك لما يعلم من مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم في غيرهم، وكانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدًا، ولكن رأى ما لا يمكن المحيد عنه.

وقوله: ﴿وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:٧٨] أي: هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة ﴿قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود:٧٨] يرشدهم إلى غشيان نسائهم وهن بناته شرعًا؛ لأن النبي للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد في الحديث(١)، وكما قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

وفي قول بعض الصحابة والسلف: وهو أب لهم.

وهذا كقوله: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ * وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(٢)﴾ [الشعراء:١٦٥-١٦٦].

وهذا هو الذي نص عليه مجاهد، وسعيد بن جبير، والربيع بن أنس، وقتادة، والسُّدي، ومحمد بن إسحاق، وهو الصواب.

والقول الآخر خطأ؛ مأخوذ من أهل الكتاب، وقد تصحَّف عليهم كما أخطأوا في قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، وإنهم تعشوا عنده وقد خبط أهل الكتاب في هذه القصة تخبيطًا عظيمًا.

---

(١) وهو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما أنا لكم بمنزلة الوالد أعلمكم...» الحديث رواه أبوداود (٨)، والنسائي (١/ ٣٨) بإسناد حسن، وهو في "الصحيح المسند" (١٣٢٦) للإمام الوادعي رحمه الله.

(٢) (عادون). أي: متجاوزون الحد في المعاصي.

وقوله: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾؟ [هود:٧٨] نهى لهم عن تعاطي ما لا يليق من الفاحشة، وشهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مُسكة(١) ولا فيه خير، بل الجميع سفهاء، فجرة أقوياء، كفرة أغبياء(٢).

وكان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوه منه من قبل أن يسألوه عنه.

فقال قومه – عليهم لعنة الله الحميد المجيد- مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد(٣): ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ [هود:٧٩].

يقولون – عليهم لعائن الله -: لقد علمت يا لوط أنه لا أرب(٤) لنا في نسائنا، وإنك لتعلم مرادنا وغرضنا.

واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم، ولم يخافوا سطوة(٥) العظيم، ذي العذاب الأليم.

ولهذا قال عليه السلام: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آَوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠].ودَّ أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة(٦) وعشيرة ينصرونه عليهم، ليحلَّ بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب وقد قال الزهري عن سعيد بن

---

(١) مسكة. أي: بقية.

(٢) أغبياء: جمع غبي وهو القليل الفطنة.

(٣) أمر سديد: قال في "الصحاح": أي: قاصد.

(٤) لا أرب لنا. أي: لا حاجة لنا.

(٥) سطوة العظيم. أي: قهره وبطشه.

(٦) له منعة. أي: مَن يمنعه من عشيرته. والعشيرة هي القبيلة.

المسيب وأبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعًا: «نحن أحق بالشك من إبراهيم(١)، ويرحم الله لوطًا، لقد كان يأوي إلى ركن شديد، ولو لبثت في السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعي»(٢).

ورواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة.

وقال تعالى: ﴿وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ * قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ * وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ * قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ * قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ [الحجر:٦٧-٧١].

فأمرهم بقربان نسائهم، وحذرهم الاستمرار على طريقتهم وسيآتهم.

هذا وهم في ذلك لا ينتهون ولا يرعوون، بل كلَّما نهاهم يبالغون في تحصيل هؤلاء الضيفان ويحرصون، ولم يعلموا ما حمل به القدر مما هم إليه صائرون وصبيحة ليلتهم إليه منقلبون.

ولهذا قال تعالى مقسمًا بحياة نبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَعَمْرُكَ(٣) إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الحجر:٧٢] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا

---

(١) أي: أن إبراهيم لم يشك، ولو كان الشك متطرقًا إليه فنحن أحق به منه، فإذا لم أشك أنا فإبراهيم أولى بذلك.

(٢) رواه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).

(٣) لعمرك: قسم من الله بحياة نبينا صلى الله عليه وسلم . (سكرتهم) أي: غوايتهم، وضلالتهم. (يعمهون) أي: يعمون عن الرشد أو يتحيرون.

بِالنُّذُرِ(١) * وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ(٢)فَطَمَسْنَا(٣) أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً(٤) عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣٦-٣٨].

ذكر المفسرون وغيرهم: أن نبي الله لوطًا عليه السلام جعل يمانع قومه الدخول ويدافعهم والباب مغلق، وهم يرومون(٥) فتحه وولوجه(٦)، وهو يعظهم وينهاهم من وراء الباب، وكل ما لهم في إلحاحٍ وإنحاح(٧)، فلما ضاق الأمر وعسر الحال قال قال ما قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود:٨٠]، لأحللت بكم النَّكال.

قالت الملائكة: ﴿يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ﴾ [هود:٨١] وذكروا أن جبريل عليه السلام خرج عليهم، فضرب وجوههم خفقة(٨) بطرف جناحه فطمست أعينهم، حتى قيل: إنها غارت بالكلية، ولم يبق لها محل ولا عين ولا أثر،

---

(١) فتماروا بالنذر: فكذبوا بها متشككين.

(٢) أي: طلبوا منه تمكينهم منهم.

(٣) أي: أعميناهم.

(٤) (بكرة): أول النهار.

(٥) يرومون. أي: يطلبون.

(٦) وولوجه. أي: دخوله.

(٧) الانحاح: من التنحية والإبعاد.

(٨) خفقة. أي: ضربة.

فرجعوا يتحسسون مع الحيطان، ويتوعدون رسول الرحمن، ويقولون: إذا كان الغد كان لنا وله شان!

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ * وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ﴾ [القمر:٣٧-٣٨].

فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط، عليه السلام، آمرين له بأن يسري هو وأهله من آخر الليل.

﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إلا امْرَأَتَك﴾ [هود:٨١]، يعني: عند سماع صوت العذاب إذا حلَّ بقومه.

وأمروه أن يكون سيره في آخرهم كالسَّاقة لهم(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] على قراءة النَّصب: يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود:٨١] كأنه يقول إلا امرأتك فلا تسر بها، ويحتمل أن يكون من قوله: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود:٨١] أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

ويقوي هذا الاحتمال قراءة الرفع، ولكن الأول أظهر في المعنى. والله أعلم.

---

(١) كالساقة: مأخوذ من ساقة الجيش، وهو مؤخره. انظر "القاموس" مادة: (سوق).

وقالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة، الملعونين النظراء(١) والأشباه، الذين جعلهم الله سلفًا لكل خائن مريب: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود:٨١].

فلما خرج لوط عليه السلام بأهله، وهم ابنتاه، لم يتبعه منهم رجل واحد، ويقال: إن امرأته خرجت معه. فالله أعلم.

فلما خلصوا من بلادهم وطلعت الشمس فكانت عند شروقها، جاءهم من أمر الله ما لا يرد، ومن البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ * مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٢-٨٣].

---

(١) النظراء: جمع نظير وهو المثل.

قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن - وكن سبع مدن - بمن فيهن من الأمم، وما معهم من الحيوانات، وما يتبع تلك المدن من الأراضي والأماكن والمعتملات.

فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان(١) السماء، حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها.

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٤] والسجيل: فارسي معرب، وهو الشديد الصلب القوي، ﴿مَنْضُودٍ﴾ أي: يتبع بعضها بعضًا في نزولها عليهم من السماء.

﴿مُسَوَّمَةً﴾ أي: معلمة، مكتوب على كلِّ حجر اسم صاحبه الذي يهبط عليه فيدمغه، كما قال: ﴿مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ [الذاريات:٣٤] وكما قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ﴾ [الشعراء:١٧٣]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ(٢) أَهْوَى * فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى * فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَى﴾ [النجم:٥٣-٥٥] يعنى: قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، وغشاها بمطر من حجارة من سجيل، متتابعة، مسومة مرقومة(٣) على كلِّ حجر اسم صاحبه الذي سقط عليه؛

---

(١) عنان السماء. أي: سحابها.

(٢) المؤتفكة: قرى قوم لوط.

(٣) مرقومة. أي: مكتوبة.

من الحاضرين منهم في بلدهم، والغائبين عنها من المسافرين والنازحين(١) والشاذين(٢) منها.

وقوله هنا: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] أي: وما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم في فعلهم.

ولهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم، سواءً كان محصنًا أولا ونص عليه الشافعي وأحمد بن حنبل وطائفة كثيرة من الأئمة.

واحتجوا أيضًا بما رواه الإمام أحمد وأهل السنن من حديث عمرو بن أبي عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»(٣).

---

(١) النازحون: هم البعيدون عن ديارهم.

(٢) الشذاذ: هم الذين لم يكونوا في حيهم ومنازلهم. انظر "القاموس" مادة: (شذذ).

(٣) ضعيف. رواه أحمد (١/ ٣٠٠)، وأبو داود (٤٤٦٢)، وابن ماجه (٢٥٦٠) وغيرهم من طريق عمرو بن أبي عمرو عن عكرمة عن ابن عباس. وعمرو بن أبي عمرو وإن كان صدوقًا قد استنكر عليه الحديث، فقد نقل الحافظ في التلخيص (٤/ ٥٤) عن النسائي أنه استنكر هذا الحديث وكذلك استنكره ابن معين، وللحديث طريق أخرى ضعيفة جدًّا رواها أحمد (٣٠٠) من طريق ابن أبي حبيبة عن داود بن الحصين، عن عكرمة عن ابن عباس به.

وابن أبي حبيبة اسمه إبراهيم بن إسماعيل، قال فيه الدارقطني: متروك. وداود بن الحصين روايته عن عكرمة ضعيفة.=

=والحديث أخرجه عبد الرزاق (١٣٤٩٢) عن إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى، وهو متروك عن داود بن الحصين بهذا الإسناد. فعلم بهذا أن الحديث ضعيف، لكن معناه صحيح، فقد أجمع على مضمونه الصحابة،

وذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق(١) جبل ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، لقوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأراضي المتاخمة لفنائها(٢)، لرداءتها ودناءتها فصارت عبرة ومثلة وعظة وآية على قدرة الله تعالى وعظمته، وعزته في انتقامه ممن خالف أمره، وكذب رسله، واتبع هواه وعصى مولاه، ودليلًا على رحمته بعباده المؤمنين في إنجائه إياهم من المهلكات، وإخراجه إياهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ(٣) * فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ(٤) * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحجر:٧٣-٧٧].

وحكم به أبو بكر الصديق، وكتب به إلى خالد بعد مشاورة الصحابة، وكان علي أشدهم في ذلك، قال ابن القيم رحمه الله في "زاد المعاد" (٥/ ٤٠): وقال ابن القصار وشيخنا: أجمعت الصحابة على قتله، وإنما اختلفوا في كيفية قتله، فقال أبو بكر الصديق: يرمى من شاهق. وقال علي: يهدم عليه حائط. وقال ابن عباس: يقتلان بالحجارة.

فهذا اتفاق منهم على قتله، وإن اختلفوا في كيفيته. اهـ

(١) الشاهق: المرتفع من الجبال والأبنية وغيرها. انظر "القاموس" مادة: (شهق).

(٢) المتاخمة لفنالها. أي: المحادَّه لما اتسع أمام أراضيهم.

(٣) مشرقين. أي: داخلين في وقت الشروق.

(٤) للمتوسمين. أي: للمتفرسين.

أي: من نظر بعين الفراسة والتوسم فيهم، كيف غير الله تلك البلاد وأهلها؟ وكيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة(١)، هالكة غامرة(٢)؟ كما روى الترمذي وغيره مرفوعًا: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله» ثم قرأ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾(٣).

وقوله: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ﴾ أي: لبطريقٍ مَهْيَعْ(٤) مسلوك إلى الآن.

كما قال: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات:١٣٧-١٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣٥]

وقال تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ * وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [الذاريات:٣٥-٣٧].

---

(١) آهلة عامرة. أي: لها أهل وعمّار.

(٢) غامرة. أي: خراب.

(٣) ضعيف. رواه الترمذي (٣١٢٧) عن أبي سعيد الخدري، وفيه عطية العوفي وهو ضعيف، ورواه أبو نعيم في "الحلية" (٦/ ١٧١) عن أبي أمامة وفي سنده أبو صالح عبدالله بن صالح قال النسائي فيه: ليس بثقة. ورواه ابن جرير (٣٤/ ٣٢) وأبو نعيم في "الحلية" (٤/ ٩٤) عن ابن عمر وفيه فرات بن السائب قال البخاري: منكر الحديث تركوه. ورواه ابن جرير (٣٤/ ٣٢) عن ثوبان رضي الله عنه وفيه مؤمل بن سعيد بن يوسف وسليمان بن سلمة قال أبو حاتم في كلٍّ منهما منكر الحديث. وانظر "الضعيفة" (١٨٢١).

(٤) مهْيَعْ.أي: بيِّن.

أي: تركناها عبرة وعظة لمن خاف عذاب الآخرة، وخشي الرحمن بالغيب، وخاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فانزجر عن محارم الله وترك معاصيه، وخاف أن يشابه قوم لوط.

ومن تشبه بقوم فهو منهم، وإن لم يكن من كل وجه فمن بعض الوجوه؛ كما قال بعضهم:

فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم فما قوم لوط منكم ببعيد

فالعاقل اللبيب الفاهم الخائف من ربه، يمتثل ما أمره الله به عز وجل، ويقبل ما أرشده إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، والجواري من السَّراري ذوات الجمال، وإياه أن يتبع كلَّ شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، ويدخل في قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣].

قصة هلاك قوم شعيب عليه السلام

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):

قصة مدين قوم شعيب عليه السلام

قال الله تعالى في سورة الأعراف بعد قصة قوم لوط: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ * وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ * قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ * وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ

---

(١) "قصص الأنبياء" (صـ٢٢١-٢٣٣).

قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ * فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ * الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ * فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف:٨٥-٩٣].

وقال في سورة هود بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ * وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ * وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ * وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ * قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ * قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ * وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ *

وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ * كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود:٨٤-٩٥].

وقال في الحجر بعد قصة قوم لوط أيضًا: ﴿وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ * فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [الحجر:٧٨- ٧٩].

وقال تعالى في الشعراء بعد قصتهم: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ * إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ * وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ * وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ * قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ * وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ * فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ * فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:١٧٦-١٩١].

كان أهل مدين قومًا عربًا يسكنون مدينتهم (مدين) التي هي قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلي ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة.

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل(١) ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيك(٢) حولها غيضة ملتفة بها. وكانوا من أسوء الناس معاملة؛ يبخسون(٣) المكيال والميزان، ويطففون فيهما، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص(٤).

فبعث الله فيهم رجلًا منهم، وهو رسول الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطي هذه الأفاعيل القبيحة، من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم في سبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحل الله بهم البأس الشديد. وهو الولي الحميد.

كما قال تعالى: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:٨٥] أي: دلالة وحجة واضحة، وبرهان قاطع على صدق ما جئتكم به وأنه أرسلني، وهو ما أجرى الله على يديه من المعجزات التي لم ينقل إلينا تفصيلها، وإن كان هذا اللفظ قد دل عليها إجمالا.

﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٨٥].

---

(١) السبيل: الطريق.

(٢) الأيك. قال في "القاموس": الشجر الملتف الكثير، والغيضة: مجمع الشجر في مغيض مـاء.

(٣) (يبخسون) أي: ينقصون.

(٤) هذا هو تعريف التطفيف.

أمرهم بالعدل ونهاهم عن الظلم، وتوعدهم على خلاف ذلك فقال: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ * وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ﴾ [الأعراف:٨٥-٨٦] أي: طريق ﴿تُوْعِدُوْنَ﴾ أي: تتوعدون الناس بأخذ أموالهم من مكوس(١) وغير ذلك وتخيفون السبل(٢).

﴿وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ [الأعراف:٨٦] نهاهم عن قطع الطريق الحسية الدنيوية، والمعنوية الدينية.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦] ذكرهم بنعمة الله تعالى عليهم في تكثيرهم بعد القلة، وحذرهم نقمة الله بهم إن خالفوا ما أرشدهم إليه ودلهم عليه.

كما قال لهم في القصة الأخرى: ﴿وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ﴾ [هود:٨٤] أي: لا تركبوا ما أنتم عليه وتستمروا فيه فيمحق الله بركة ما في أيديكم، ويفقركم ويذهب ما به يغنيكم.

وهذا مضاف إلى عذاب الآخرة، ومن جمع له هذا وهذا، فقد باء بالصفقة(٣) الخاسرة! فنهاهم أولًا عن تعاطي ما لا يليق من التطفيف، وحذرهم سلب نعمة الله

---

(١) المكس. قال في "القاموس": النقص والظلم ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية.

(٢) السبل: الطرق.

(٣) الصفقة: البيعة. انظر "القاموس" مادة: (صفق).

عليهم في دنياهم، وعذابه الأليم في أخراهم، وعنفهم(١) أشدَّ تعنيف، ثم قال لهم آمرًا بعد ما كان عن ضده زاجرًا(٢): ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ * بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٥-٨٦].

قال ابن عباس والحسن البصري: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: رزق الله خير لكم من أخذ أموال الناس.

وقال ابن جرير: ما يفضل لكم من الربح بعد وفاء الكيل والميزان، خير لكم من أخذ أموال الناس بالتطفيف.

قال: وقد روي هذا عن ابن عباس.

وهذا الذي قاله وحكاه حسن، وهو شبيه بقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ﴾ [المائدة:١٠٠] يعني: أن القليل من الحلال خير لكم من الكثير من الحرام؛ فإن الحلال مبارك(٣) وإن قلَّ، والحرام ممحوق(٤) وإن كثر.

كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا(٥) وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]

---

(١) قال في "القاموس" عنفه. أي: لامه بعنف وشدة.

(٢) زاجرًا. أي: مانعًا وناهيًا.

(٣) البركة: ثبوت الخير الإلهي في الشيء.

(٤) ممحوق. أي: منزوع البركة.

(٥) (يمحق الله الربا). أي: يذهب البركة من المال الذي دخله الربا، (ويربي الصدقات) أي: ينمِّي المال

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إن الربا وإن كثر فإن مصيره إلى قل». رواه أحمد(١).

أي: إلى قلة.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما»(٢).

والمقصود أن الربح الحلال مبارك فيه وإن قل، والحرام لا يجدي(٣) وإن كثر.

ولهذا قال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَّةُ اللهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود:٨٦].

وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ [هود:٨٦] أي: افعلوا ما آمركم به ابتغاء وجه الله ورجاء ثوابه، لا لأراكم أنا وغيري.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ [هود:٨٧].

الذي أخرجت منه.

(١) صحيح. رواه أحمد (١/ ٣٩٥)، وابن ماجه (٢٢٧٩)، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وهو في "الصحيح المسند" (٨٢٧)، لشيخنا الوادعي رحمه الله.

(٢) رواه البخاري (٢٠٧٩)، ومسلم (١٥٣٢)، عن حكيم بن حزام رضي الله عنه .

(٣) لا يجدي. أي: لا يغني.

يقولون هذا على سبيل اللإستهزاء والتنقص والتهكم(١): أصلاتك هذه التي تصليها، هي الآمرة لك بأن تحجر(٢) علينا فلا نعبد إلا إلهك؟ ونترك ما يعبد آباؤنا الأقدمون وأسلافنا الأولون؟ أو أن لا نتعامل إلا على الوجه الذي ترتضيه أنت، ونترك المعاملات التي تأباها وإن كنا نحن نرضاها؟.

﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ قال ابن عباس وميمون بن مهران وابن جريج وزيد بن أسلم وابن جرير: يقولون ذلك أعداء الله على سبيل اللإستهزاء.

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨].

هذا تلطف معهم في العبارة، ودعوة لهم إلى الحق بأبين إشارة.

يقول لهم: أرأيتم(٣) أيها المكذبون ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أي: على أمر بين من الله تعالى أنه أرسلني إليكم، ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يعني: النبوة والرسالة، يعني: وعمي عليكم معرفتها، فأي حيلة لي فيكم؟

وهذا كما تقدم عن نوح عليه السلام أنه قال لقومه سواء.

---

(١) التهكم: قال في "القاموس": الاستهزاء والطعن المتدَارِك.

(٢) الحجر: هو المنع.

(٣)أرأيتم. أي: أخبروني.

وقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ أي: لست آمركم بالأمر إلا وأنا أول فاعل له، وإذا نهيتكم عن الشيء فأنا أول من يتركه.

وهذه هي الصفة المحمودة العظيمة، وضدها هي المردودة الذميمة، كما تلبس بها علماء بني إسرائيل في آخر زمانهم، وخطباؤهم الجاهلون.

قال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤] وذكرنا عندها في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه - أي: تخرج أمعاؤه من بطنه - فيدور بها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار فيقولون: يا فلان مالك؟ ألم تكن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟ فيقول: بلى. كنت آمر بالمعروف ولا آتيه، وأنهى عن المنكر وآتيه».

وهذه صفة مخالفي الأنبياء من الفجار والأشقياء.

فأما السادة من النجباء(١)، والألباء من العلماء، الذين يخشون ربهم بالغيب، فحالهم كما قال نبي الله شعيب: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨] أي: ما أريد في جميع أمري إلا الإصلاح في الفعال والمقال بجهدي وطاقتي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ﴾ أي: في جميع أحوالي ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ أي: عليه أتوكل في سائر الأمور، وإليه مرجعي ومصيري في كل أمري.

---

(١) النجباء: جمع نجيب، وهو الكريم الحسيب. انظر "القاموس" مادة: (نجب).

وهذا مقام ترغيب.

ثم انتقل إلى نوع من الترهيب فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩].

أي: لا يحملنكم مخالفتي وبغضكم ما جئتكم به على اللإستمرار على ضلالكم وجهلكم ومخالفتكم، فيحل الله بكم من العذاب والنكال، نظير(١) ما أحله بنظرائكم وأشباهكم، من قوم نوح وقوم هود وقوم صالح من المكذبين المخالفين.

وقوله: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ ، قيل معناه: في الزَّمان، أي: ما بالعهد من قدم، مما قد بلغكم ما أحلَّ بهم على كفرهم وعتوهم.

وقيل معناه: وما هم منكم ببعيد في المحلة والمكان.

وقيل: في الصفات والأفعال المستقبحات، من قطع الطريق، وأخذ أموال الناس جهرة وخفية بأنواع الحيل والشبهات.

والجمع بين هذه الأقوال ممكن: فإنهم لم يكونوا بعيدين منهم لا زمانًا ولا مكانًا ولا صفات.

ثم مزج الترهيب بالترغيب فقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾ [هود:٩٠] أي: أقلعوا عما أنتم فيه، وتوبوا إلى ربكم الرحيم الودود، فإنه

---

(١) نظير. أي: مثل.

من تاب إليه تاب عليه، فإنه رحيم بعباده، أرحم بهم من الوالدة بولدها ﴿وَدُوْدٌ﴾ وهو الحبيب ولو بعد التوبة على عبده، ولو من الموبقات(١) العظام.

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:٩١].

---

(١) الموبقات. أي: المهلكات.

روي عن ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا: كان ضرير البصر(١).

---

(١) هذا القول أنكره غير واحد من المفسرين ، قال ابن عادل الحنبلي في "اللباب في علوم الكتاب" (١٠/ ٥٥٢) ثم قال: (وإنا لنراك فينا ضعيفًا) قيل: الضعف الذي يتعذر عليه منع القوم عن نفسه. وقيل : هو الأعمى بلغة حمير وهذا ضعيفٌ؛ لأنه ترك للظاهر بغير دليل، وأيضاً فقوله: (فِينَا) يُبطل هذه الوجوه؛ لأنَّهم لو قالوا: إنَّا لنراك أعْمَى فِينَا كان فاسداً؛ لأنَّ الأعمى أعْمَى فيهم وفي غيرهم، وأيضاً قولهم بعد ذلك:(ولَوْلاَ رهْطُكَ لرجَمْناكَ) فنفوا عنه القُوَّة التي أثبتوها في رهطه، وهي النُّصرة؛ فوجب أن تكون القوة التي نفوها عنه هي النُّصرة. واستدلّ بعضُ العلماءِ بهذه الآية على تجويزِ العمى على الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – . وذلك اللَّفظ لا يدلُّ عليه، لما بيَّناه.

وقال ابن عاشور رحمه الله في "التحرير والتنوير" (٥/ ١٤٩): ومن فساد التفاسير تفسير الضعيف بفاقد البصر وأنه لغة حميرية فركبوا منه أنّ شعيباً عليه السّلام كان أعمى، وتطرّقوا من ذلك إلى فرض مسألة جواز العمى على الأنبياء، وهو بناء على أوهام. ولم يعرف من الأثر ولا من كتب الأوّلين ما فيه أنّ شعيباً عليه السّلام كان أعمى.

وقال الألوسي في "روح المعاني" (٧/ ١٦٧): (وإنا لنراك فينا) أي: فيما بيننا ضعيفًا، لا قوة لك، ولا قدرة، على شيء من الضر والنفع، والإيقاع والدفع، وروي عن ابن عباس، وابن جبير، وسفيان الثوري، وأبي صالح، تفسير الضعيف: بالأعمى. وهي لغة أهل اليمن، وذلك كما يطلقون عليه ضريرًا، وهو من باب الكناية، على ما نص عليه البعض، وإطلاق البصير عليه، كما هو شائع من باب الإستعارة، تلميحًا، وضعف هذا التفسير، بأن التقييد بقولهم : فينا يصير لغوا؛ لأن من كان أعمى يكون أعمى فيهم وفي غيرهم، وإرادة لازمه وهي الضعف بين من ينصره ويعاديه، ولا يخفى تكلفه.

ومن هنا قال الإمام: جوز بعض أصحابنا العمى على الأنبياء عليهم السلام، لكن لا يحسن الحمل عليه هنا، وأنت تعلم أن المصحح عند أهل السنة، أن الأنبياء عليهم السلام ليس فيهم أعمى، وما حكاه الله تعالى عن يعقوب عليه السلام، كان أمرًا عارضًا، وذهب والأخبار= =المروية عمن ذكرنا في شعيب عليه السلام، لم نقف على تصحيح لها، سوى ما روي عن ابن عباس – رضي الله تعالى عنهما – فإن الحاكم صحح بعض

وقولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١] هذا من كفرهم البليغ، وعنادهم الشنيع، حيث قالوا: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ﴾ [هود:٩١] أي: ما نفهمه ولا نعقله، لأنا لا نحبه ولا نريده، وليس لنا همة إليه، ولا إقبال عليه.

وهو كما قال كفار قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ(١) مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ(٢) وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت:٥].

وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود:٩١] أي: مضطهدًا مهجورًا.

﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ﴾ [هود:٩١] أي: قبيلتك وعشيرتك فينا: ﴿لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [هود:٩١].

﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ﴾ [هود:٩٢] أي: تخافون قبيلتي وعشيرتي وترعوني بسببهم، ولا تخافون عذاب الله؟ ولا تراعوني؛ لأني رسول الله؟ فصار رهطي أعز عليكم من الله. ﴿وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا﴾ [هود:٩٢] أي: جانب الله وراء ظهوركم. ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود:٩٢] أي: هو عليم بما تعملونه وما تصنعونه، محيط بذلك كله، وسيجزيكم عليه يوم ترجعون إليه.

طرقه، لكن تصحيح الحاكم كتضعيف ابن الجوزي، غير معول عليه، وربما يقال فيه نحو ما قيل في يعقوب عليه السلام.

(١) أكنة. أي: أغطية.

(٢) وقر. أي: صمم.

﴿وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣].

هذا أمر تهديد شديد ووعيد أكيد، بأن يستمروا على طريقتهم ومنهجهم وشاكلتهم، فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدَّار، ومن يحل عليه الهلاك والبوار(١) ﴿مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ [هود:٩٣] أي: في هذه الحياة الدنيا ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [هود:٣٩] أي: في الأخرى ﴿وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ﴾ أي: مني ومنكم فيما أخبر وبشر وحذر.

﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ [هود:٩٣] هذا كقوله: ﴿وَإِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آَمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [الأعراف:٨٧].

﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩].

طلبوا بزعمهم أن يردوا من آمن منهم إلى ملتهم، فانتصب شعيب للمحاجة عن قومه فقال: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾ [الأعراف:٨٨] أي: هؤلاء لا يعودون إليكم

---

(١) البوار: بمعنى الهلاك.

اختيارًا، وإنما يعودون إليكم إن عادوا، اضطرارا مكرهين؛ وذلك لأن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يسخطه أحد، ولا يرتد أحد عنه، ولا محيد لأحد منه.

ولهذا قال: ﴿قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الأعراف:٨٩] أي: فهو كافينا، وهو العاصم لنا وإليه ملجأنا في جميع أمرنا.

ثم استفتح على قومه، واستنصر ربه عليهم في تعجيل ما يستحقونه إليهم فقال: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف:٨٩] أي: الحاكمين.

فدعا عليهم، والله لا يرد دعاء رسله إذا استنصروه على الذين جحدوه وكفروه، ورسوله خالفوه.

ومع هذا صمَّموا على ما هم عليه مشتملون، وبه متلبسون: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٠].

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٩١] ذكر في سورة الأعراف أنهم أخذتهم رجفة، أي: رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالًا شديدًا أزهقت(١) أرواحهم من أجسادهم، وصيرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم جاثية؛ لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

---

(١) أزهقت. أي: ذهبت.

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وصنوفًا من المثلات(١)، وأشكالًا من البليات، وذلك لما اتَّصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفةً شديدةً أسكنت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظلة أرسل عليهم منها شرر النَّار من سائر أرجائها والجهات.

ولكنه تعالى أخبر عنهم في كلِّ سورة بما يناسب سياقها ويوافق طباقها؛ في سياق قصة الأعراف أرجفوا نبيَّ الله وأصحابه، وتوعدوهم بالإخراج من قريتهم، أو ليعودن في ملتهم راجعين.

فقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف:٧٨]

فقابل الإرجاف بالرجفة، والإخافة بالخيفة، وهذا مناسب لهذا السياق ومتعلق بما تقدمه من السياق.

---

(١) المثلات: بمعنى العقوبات.

وأما في سورة هود: فذكر أنهم أخذتهم الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين وذلك لأنهم قالوا لنبي الله على سبيل التهكم(١) والاستهزاء والتنقص: ﴿أصلوتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ فناسب أن يذكر الصيحة التي هي كالزجر عن تعاطي هذا الكلام القبيح، الذي واجهوا به هذا الرسول الكريم الأمين الفصيح، فجاءتهم صيحة أسكتتهم مع رجفة أسكنتهم.

وأما في سورة الشعراء: فذكر أنه أخذهم عذاب يوم الظلة، وكان ذلك إجابة لما طلبوا، تقريبًا إلى ما إليه رغبوا، فإنهم قالوا: ﴿إنما أنت من المسحرين * وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين * فأسقط علينا كسفا من السماء إن كنت من الصادقين * قال ربي أعلم بما تعملون﴾.

قال الله تعالى وهو السميع العليم: ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾.

ومن زعم من المفسرين كقتادة وغيره: أن أصحاب الأيكة أمة أخرى غير أهل مدين، فقوله ضعيف.

وإنما عمدتهم شيئان:

أحدهما أنه قال: ﴿كَذَّبَ أَصحاب الأيكة المرسلين * إذ قال لهم شعيب﴾ ولم يقل أخوهم كما قال: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبا﴾.

---

(١) التهكم: بمعنى الاستهزاء. انظر "القاموس" مادة: (هكم).

والثانى: أنه ذكر عذابهم بيوم الظلة، وذكر في أولئك الرجفة أو الصيحة.

والجواب عن الأول: أنه لم يذكر اللأُخوة بعد قوله: ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ لأنه وصفهم بعبادة الأيكة، فلا يناسب ذكر اللأُخوة هاهنا.

ولما نسبهم إلى القبيلة ساغ ذكر شعيب، بأنه أخوهم.

وهذا الفرق من النفائس اللطيفة العزيزة الشريفة.

وأما احتجاجهم بيوم الظلة؛ فإن كان دليلا بمجرده على أن هؤلاء أمة أخرى، فليكن تعداد الانتقام بالرجفة والصيحة دليلا على أنهما أمتان أخريان، وهذا لا يقوله أحد يفهم شيئا من هذا الشأن.

ثم قد ذكر الله عن أهل الأيكة من المذمة ما ذكره عن أهل مدين من التطفيف في المكيال والميزان، فدل على أنهم أمة واحدة، أهلكوا بأنواع من العذاب.

وذكر في كل موضع ما يناسب من الخطاب.

وقوله: ﴿فأخذهم عذاب يوم الظلة إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ ذكروا أنهم أصابهم حر شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب(١)، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب(٢)، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح. ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها الذي كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾

ونجى الله شعيبًا ومن معه من المؤمنين، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا * وأخذت الذي ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدًا لمدين كما بعدت ثمود﴾ وقال تعالى: ﴿وقال الملا الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين * الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين﴾ وهذا في مقابلة قولهم: ﴿لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون﴾.

---

(١) الأسراب: جمع سَرَب، وهو المحفور سفلًا لانفاذ له. انظر "العين" مادة: (سرب).

(٢) نؤمن بما دل عليه القرآن بأنه أخذهم عذاب يوم الظلة، ولكن هذا التفصيل لا نصدقه ولا نكذبه، لأنه من الأخبار الإسرائيلية.

ثم ذكر تعالى عن نبيهم: أنه نعاهم إلى أنفسهم موبخا ومؤنبا ومقرعا، فقال تعالى: ﴿فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين﴾.

أي أعرض عنهم موليا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلا: ﴿يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم﴾.

أي قد أديت ما كان واجبا عليَّ من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدي من يضل وماهم من ناصرين.

فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

ولهذا قال: ﴿فكيف آسى﴾ أي: أحزن ﴿على قوم كافرين﴾ أي: لا يقبلون الحق ولا يرجعون إليه ولا يلتفتون إليه فحل بهم من بأس الله الذي لا يرد ما لا يدفع ولا يمانع، ولا محيد لأحد أريد به عنه، ولا مناص عنه.

هلاك أصحاب الرس

قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا * وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٨- ٣٩].اختلف المفسرون في أصحاب الرس مَنْ هُم، على أقوال لا دليل على شيء منها:فقيل: هم أهل قرية من قرى ثمود قاله ابن عباس.وقيل: هم أصحاب ياسين قاله عكرمة.واستظهر الحافظ ابن كثير أنهم غيرهم، كما في "قصص الأنبياء" (ص: ٣٠).وقيل: هم أصحاب بئر بأذربيجان قاله ابن عباس وقيل: الرس بئر رسُّوا فيها نبيهم أي: دفنوه فيها.وقيل: هم أصحاب الأخدود واختاره ابن جرير، وضعفه الحافظ ابن كثير رحمه الله.

وقال الشنقيطي رحمه الله(١):وأما أصحاب الرس فلم يأت في القرآن تفصيل قصتهم ولا اسم نبيهم وللمفسرين فيهم أقوال كثيرة تركناها لأنها لا دليل على شيء منها.

والرس في لغة العرب: البئر التي ليست بمطوية.

وقال الجوهري في "صحاحه": إنها البئر المطوية بالحجارة. اهـ

وقوله تعالى: ﴿وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا﴾ [الفرقان:٣٩]. أي: أهلكنا إهلاكًا.

---

(١) "أضواء البيان" (٦/ ٣٢٥).

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ * وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٢-١٤].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ﴾ قال المفسرون هم قوم شعيب عليه الصلاة والسلام.

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ هو: تبع الحميري اليماني، وكان ملكًا على اليمن، وقومه هم سبأ، وسيأتي إن شاء الله تعالى ذكرهم.

قصة هلاك قوم ياسين

قال الله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ * إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ * قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ * قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ * وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ * قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ * قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ * وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ * اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ * إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ * قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ * بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ * وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ

جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ * إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ [يس:١٣- ٢٩].

قال ابن كثير رحمه الله(١):

قال الله تعالى: ﴿واضرب لهم مثلا﴾ يعني: لقومك يا محمد ﴿أصحاب القرية﴾ يعني: المدينة ﴿إذ جاءها المرسلون * إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث﴾ أي: أيدناهما بثالث في الرسالة، ﴿فقالوا إنا إليكم مرسلون﴾، فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم؛ كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبيًا بشريًّا.

فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم، ولو كنا كذبنا عليه لعاقبنا وانتقم منا أشد الانتقام.

﴿وما علينا إلا البلاغ المبين﴾ أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء ﴿قالوا إنا تطيرنا بكم﴾ أي: تشاءمنا بما جئتمونا به، ﴿لئن لم تنتهوا لنرجمنكم﴾ قيل: بالمقال. وقيل: بالفعال.

يؤيد الأول قوله: ﴿وليمسنكم منا عذاب أليم﴾ توعدوهم بالقتل والإهانة.

﴿قالوا طائركم معكم﴾ أي: مردود عليكم ﴿أئن ذكرتم﴾ أي: بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة؟ ﴿بل أنتم قوم مسرفون﴾ أي: لا تقبلون الحق ولا تريدونه.

---

(١) "قصص الأنبياء" (ص: ٣٠٥-٣٠٧).

وقوله تعالى: ﴿وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى﴾ يعني: لنصرة.

الرسل وإظهار الإيمان بهم ﴿قال يا قوم اتبعوا المرسلين * اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون﴾ أي: يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة ولا جُعَالة(١).

ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه مما لا ينفع شيئا لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿إني إذا لفي ضلال مبين﴾ أي: إن تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه.

ثم قال مخاطبا للرسل: : إني آمنت بربكم فاسمعون. قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل معناه: فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة.

فعند ذلك قتلوه، قيل: رجمًا، وقيل: عضًّا، وقيل: وثبوا إليه وثبة رجل واحد فقتلوه. ولهذا قال تعالى:

﴿قيل ادخل الجنة﴾ يعني: لما قتله قومه أدخله الله الجنة، فلما رأى فيها من النضرة والسرور: ﴿قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ يعني: ليؤمنوا بما آمنت به فيحصل لهم ما حصل لي.

ولما عاين ما عاين من كرامة الله ﴿قال يا ليت قومي يعلمون * بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين﴾ تمنى من الله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه!

---

(١) الجعالة: قال في "القاموس": ما جعله له على عمله.

قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء وما كنا منزلين﴾

أي: وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم.

هذا معنى ما رواه ابن إسحق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود.

قال مجاهد وقتادة: وما أنزل عليهم جندا، أي: رسالة أخرى.

قال ابن جرير: والأول أولى.

قلت: وأقوى، ولهذا قال: ﴿وما كنا منزلين﴾ أي: وما كنا نحتاج

في الانتقام إلى هذا حين كذبوا رسلنا وقتلوا ولينا: ﴿إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون﴾.

قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عليه السلام، فأخذ بعضادتي الباب(١) الذي لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذاهم خامدون، أي: قد أخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

---

(١) عضادتا الباب: ما كان عليهما يطبق الباب، إذا صفق. انظر "العين" مادة: (عضد).

قصة هلاك فرعون وجنوده

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله(١):

لما تمادى قبط مصر على كفرهم وعتوهم وعنادهم، متابعة لملكهم فرعون، ومخالفة لنبي الله ورسوله وكليمه موسى بن عمران عليه السلام أقام الله على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، وأراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار وحير العقول، وهم مع ذلك لا يرعوون ولا ينتهون، ولا ينزعون ولا يرجعون، ولم يؤمن منهم إلا القليل.

قيل ثلاثة: وهم امرأة فرعون، ولا علم لأهل الكتاب بخبرها، ومؤمن آل فرعون الذي تقدمت حكاية موعظته ومشورته، وحجته عليهم، والرجل الناصح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة، فقال: ﴿يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين﴾ ،قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبي حاتم عنه ومراده غير السحرة، فإنهم كانوا من القبط.

وقيل: بل آمن به طائفة من القبط من قوم فرعون، والسحرة كلهم وجميع شعب بني إسرائيل.

ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين﴾.

---

(١) "قصص الأنبياء" (ص: ٣٦٧- ٣٧٥).

فالضمير في قوله: ﴿إلا ذرية من قومه﴾ عائد على فرعون لأن السياق يدل عليه، وقيل على موسى لقربه، والأول أظهر كما هو مقرر في التفسير وإيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون وسطوته، وجبروته وسلطته، ومن ملئهم أن ينُمُّوا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم.

قال الله تعالى مخبرا عن فرعون وكفى بالله شهيدا: ﴿وإن فرعون لعال في الأرض﴾ أي: جبار عنيد مشتغل بغير الحق، ﴿وإنه لمن المسرفين﴾ أي: في جميع أموره، وشؤونه، وأحواله.

ولكنه جرثومة، قد حان انجعافها(١)، وثمرة خبيثة، قد آن قطافها، ومهجة(٢) ملعونة، قد حتم إتلافها.

وعند ذلك قال موسى: ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين * فقالوا على الله توكلنا ربنا لا تجعلنا فتنة للقوم الظالمين * ونجنا برحمتك من القوم الكافرين﴾ فأمرهم بالتوكل على الله، والاستعانة به، والالتجاء إليه، فأتمروا بذلك فجعل الله لهم مما كانوا فيه فرجًا ومخرجًا.

﴿وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا، واجعلوا بيوتكم قبلة وأقيموا الصلاة وبشر المؤمنين﴾.

---

(١) انجعافها. أي: قلعها. انظر "القاموس" مادة: (جعف).

(٢) المهجة: قال في "القاموس": الدم أو دم القلب والروح.

أوحى الله تعالى إلى موسى وأخيه هارون عليهما السلام أن يتخذا لقومهما بيوتا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة الرحيل إذا أمروا به، ليعرف بعضهم بيوت بعض.

وقوله: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس:٨٧].

قيل: مساجد، وقيل معناه: كثرة الصلاة فيها، قاله: مجاهد، وأبو مالك، وإبراهيم النخعي، والربيع، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، وغيرهم.

ومعناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضرِّ والشدة والضيق، بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥].

وقيل معناه: أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم في مجتمعاتهم ومعابدهم، فأمروا أن يصلوا في بيوتهم، عوضًا عمَّا فاتهم من إظهار شعائر الدين الحق في ذلك الزمان، الذي اقتضى حالهم إخفاءه خوفًا من فرعون وملئه، والمعنى الأول أقوى لقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٨٧].

وإن كان لا ينافي الثاني أيضًا، والله أعلم.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس:٨٧] أي: متقابلة.

﴿وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ * قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٨-٨٩].

هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم الله موسى على عدو الله فرعون، غضبًا لله عليه لتكبره عن اتباع الحق، وصده عن سبيل الله ومعاندته وعتوه وتمرده، واستمراره على الباطل، ومكابرته الحق الواضح الجلي الحسِّي والمعنوي، والبرهان القطعي.

فقال: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ﴾ [يونس:٨٨] يعني: قومه من القبط، ومن كان على ملته ودان بدينه: ﴿زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ﴾ [يونس:٨٨] أي: وهذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا، فيحسب الجاهل أنهم على شيء، لكن هذه الأموال وهذه الزينة، من اللباس، والمراكب الحسنة الهنية، والدور الأنيقة(١)، والقصور المبنية، والمآكل الشهية والمناظر البهية، والملك العزيز والتمكين، والجاه العريض في الدنيا لا الدين.

﴿رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ﴾ [يونس:٨٨]، قال ابن عباس ومجاهد: أي: أهلكها. وقال أبو العالية والربيع بن أنس والضحاك: اجعلها حجارة منقوشة كهيئة ما كانت.

وقوله: ﴿وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٨٨] قال ابن عباس: أي: اطبع عليها.

---

(١) الأنيق: الحسن المعْجِب.

وهذه دعوة غضب لله تعالى ولدينه ولبراهينه.

فاستجاب الله تعالى لها، وحققها وتقبلها، كما استجاب لنوح في قومه حيث قال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا * إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح:٢٦-٢٧].

ولهذا قال تعالى مخاطبًا لموسى حين دعا على فرعون وملئه، وأمن أخوه هارون على دعائه، فنزل ذلك منزلة الداعي أيضًا: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس:٨٩]

قال المفسرون وغيرهم من أهل الكتاب(١): استأذن بنو إسرائيل فرعون في الخروج إلى عيدٍ لهم، فأذن لهم وهو كاره، ولكنهم تجهزوا للخروج وتأهبوا له، وإنما كان في نفس الأمر مكيدة بفرعون وجنوده، ليتخلصوا منهم ويخرجوا عنهم.

وأمرهم الله تعالى – فيما ذكره أهل الكتاب – أن يستعيروا حليًّا منهم، فأعاروهم شيئًا كثيرًا،(٢) فخرجوا بليل فساروا مستمرين ذاهبين من فورهم، طالبين بلاد الشام.

فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كلَّ الحنق، واشتد غضبه عليهم، وشرع في استحثاث جيشه وجمع جنوده ليلحقهم ويمحقهم.

قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ * إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ * وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ * وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ * فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ * فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ * فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ * قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ * فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ *

---

(١) هذا مما لا يصدق ولا يكذب؛ لأنها أخبار من كتب قد حرفت وبدلت، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله، وما أنزل إلينا وما أنزل إليكم» رواه البخاري (٧٥٤٢)، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ولولا ترابط هذا الكلام بعضه ببعض لحذفته، كما حذفت غيره. والله المستعان.

(٢) هذا أيضاً مما لا يصدق ولا يكذب لأنه متلقى من أهل الكتاب

وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء:٥٢-٦٨].

والمقصود: أن فرعون لحقهم بالجنود، فأدركهم عند شروق الشمس، وتراءى الجمعان، ولم يبق ثَمَّ ريب، ولا لبس، وعاين كل من الفريقين صاحبه وتحققه ورآه، ولم يبق إلا المقاتلة والمجادلة والمحاماة.

فعندها قال أصحاب موسى وهم خائفون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُوْنَ﴾ وذلك لأنهم اضطروا في طريقهم إلى البحر فليس لهم طريق ولا محيد إلا سلوكه وخوضه، وهذا ما لا يستطيعه أحد ولا يقدر عليه، والجبال عن يسرتهم وعن أيمانهم وهي شاهقة منيفة(١)، وفرعون قد غالقهم وواجههم، وعاينوه في جنوده وجيوشه وعُدَدِه وعَدَدِه، وهم منه في غاية الخوف والذعر، لما قاسوا في سلطانه من الإهانة والمكر.

فشكوا إلى نبيِّ الله ما هم فيه مما قد شاهدوه وعاينوه.

فقال لهم الرسول الصادق المصدوق: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ وكان في السَّاقة، فتقدم إلى المقدمة(٢)، ونظر إلى البحر وهو يتلاطم بأمواجه، ويتزايد زبد أجاجه، وهو يقول: ها هنا أمرت. ومعه أخوه هرون، ويوشع ابن نون، وهو يومئذ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم وعبادهم الكبار، وقد أوحى الله إليه وجعله نبيًّا بعد

---

(١) شاهقة مرتفعة. أي: طويلة مرتفعة.

(٢) هذا يحتاج إلى دليل.

موسى وهرون عليهما السلام - كما سنذكره فيما بعد إن شاء الله- ومعهم أيضًا مؤمن آل فرعون، وهم وقوف، وبنو إسرائيل بكمالهم عليهم عكوف.

فلما تفاقم الأمر وضاق الحال واشتد الأمر، واقترب فرعون وجنوده في جدهم وحدهم وحديدهم، وغضبهم وحنقهم، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، عند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير، رب العرش الكريم، إلى موسى الكليم: ﴿أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ [الشعراء:٦٣].

قال الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ [الشعراء:٦٣].

ويقال: إنه انفلق اثني عشر طريقًا، لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل: إنه صار فيه أيضًا شبابيك ليرى بعضهم بعضا! وفي هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه.

وهكذا كان ماء البحر قائمًا مثل الجبال، مكفوفًا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذي يقول للشيء كن فيكون، وأمر الله تعالى ريح الدبور(١)، فلفحت حال البحر(٢)، فأذهبته، حتى صار يابسًا لا يعلق في سنابك(٣) الخيول والدواب.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى * فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ * وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى﴾ [طه:٧٧-٧٩].

---

(١) وهي الريح الغربية.

(٢) حال البحر: هو الطين الأسود، كالحمأة. انظر "النهاية" (٢٤٣)، و"الصحاح" (٩٩).

(٣) السنابك: جمع سنبك. وهو طرف الحافر. انظر "القاموس" (١٢١٨).

والمقصود: أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال، بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، وقد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، ويهدي قلوب المؤمنين. فلما جاوزه وجاوزوه، وخرج آخرهم منه، وانفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه، ووفودهم عليه.

فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون وجنوده وصول إليه، ولا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال وهو الصادق في المقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ * أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ * وَأَنْ لَا تَعْلُوا عَلَى اللهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ * وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ * فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ * فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ * وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ * كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ * وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ * مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ * وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * وَآتَيْنَاهُمْ مِنَ الْآيَاتِ مَا فِيهِ بَلَاءٌ مُبِينٌ﴾ [الدخان:١٧-٣٣].

فقوله تعالى: ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان:٢٤] أي: ساكنًا على هيئته، لا تغيره عن هذه الصفة قاله عبد الله بن عباس ومجاهد وعكرمة والربيع والضحاك وقتادة وكعب الأحبار وسماك بن حرب و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وغيرهم.

فلما تركه على هيئته وحالته وانتهى فرعون، فرأى ما رأى وعاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، وتحقق ما كان يتحققه قبل ذلك، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم ولم يتقدم، وندم في نفسه على خروجه في طلبهم والحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدًا وعاملهم معاملة العدو، وحملته النفس الكافرة، والسجية(١) الفاجرة، على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه، وعلى باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لي لأدرك عبيدي الآبقين(٢) من يدي، الخارجين على طاعتي وبلدي؟ وجعل يوري في نفسه أن يذهب خلفهم، ويرجو أن ينجو وهيهات، ويقدم تارة ويحجم تارات! فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى في صورة فارس راكب على رمكة(٣) حائل(٤) فمر بين يدي فحل فرعون لعنه الله، فحمحم(٥) إليها وأقبل عليها، وأسرع جبريل بين يديه فاقتحم البحر، واستبق

---

(١) السجية: هي الخلق والطبيعة. انظر "الصحاح" مادة: (سجا).

(٢) الآبقين، أي: الهاربين.

(٣) الرمكة: الأنثى من البراذين. انظر "الصحاح" مادة: (رمك).

(٤) حائل. أي: لم تحمل سنة أو أكثر. انظر "العين" مادة: (حول).

(٥) في "الصحاح": حمحم الفرس، وتحمحم، وهو صوته إذا طلب العلف.

الجواد(١) وقد أجاد، فبادر مسرعًا(٢)، هذا وفرعون لا يملك من نفسه ضرًّا ولا نفعًا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا في البحر أجمعين أكتعين أبصعين(٣)، حتى هَمَّ أولهم بالخروج منه، فعند ذلك أمر الله تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب بعصاه البحر.

فضربه فارتطم(٤) عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ * ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآَخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ * وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ [الشعراء: ٦٥-٦٨].

أي: في إنجائه أولياءه فلم يغرق منهم أحد، وإغراقه أعداءه فلم يخلص منهم أحد، آية عظيمة، وبرهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة، وصدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة، والمناهج المستقيمة.

وقال تعالى: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ

---

(١) الجواد: هو الفرس.

(٢) هذا من الأخبار الإسرائيلية التي لا تصدق ولا تكذب.

(٣) هذه من ألفاظ التوكيد، وأكتعون: جمع أكتع، وهو مأخوذ من تكتع الجلد، إذا اجتمع. وأبصعون: جمع أبصع، وهو مأخوذ من البصع وهو العرق المجتمع. انظر "الكواكب الدرية" (٥٦٧/٢).

(٤) ارتطم. أي: ازدحم وتراكم. انظر "القاموس" (١٤٣٩).

الْمُسْلِمِينَ * آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ * فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٠-٩٢].

يخبر تعالى عن كيفية غرق فرعون زعيم كفرة القبط، وأنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارة وترفعه أخرى، وبنو إسرائيل ينظرون إليه وإلى جنوده، ماذا أحل الله به وبهم من البأس العظيم والخطب الجسيم، ليكون أقر لأعين بني إسرائيل، وأشفى لنفوسهم.

فلما عاين فرعون الهلكة وأحيط به، وباشر سكرات الموت أناب حينئذ وتاب، وآمن حين لا ينفع نفسًا إيمانها،

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ(١) عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ [يونس:٩٦-٩٧].

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّةَ اللهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر:٨٤-٨٥].

وهكذا دعا موسى على فرعون وملئه، أن يطمس على أموالهم، ويشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم، أي: حين لا ينفعهم ذلك، ويكون حسرة عليهم، وقد قال تعالى لهما – أي: لموسى وهرون – حين دعوا بهذا: ﴿قَدْ أُجِيبَتْ

(١) حقت. أي: وجبت.

دَعْوَتُكُمَا﴾ [يونس:٨٩] فهذا من إجابة الله تعالى دعوة كليمه وأخيه هرون عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٩١] استفهام إنكار، ونص على عدم قبوله تعالى منه ذلك؛ لأنه – والله أعلم– لو رد إلى الدنيا كما كان لعاد إلى ما كان عليه، كما أخبر تعالى عن الكفار، إذا عاينوا النار وشاهدوها أنهم يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧] قال الله: ﴿بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الأنعام:٢٨].

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً﴾ [يونس:٩٢] قال ابن عباس وغير واحد: شكَّ بعض بني إسرائيل في موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وقيل: على نجوة(١) من الأرض، وعليه درعه التي يعرفونها من ملابسه، ليتحققوا بذلك هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه.

ولهذا قال: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس:٩٢] أي: مصاحبًا درعك المعروفة بك: ﴿لِتَكُوْنَ﴾ أي: أَنْتَ آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ﴾ أي: من بني إسرائيل، ودليلًا على قدرة الله الذي أهلكك، ولهذا قرأ بعض السلف: ﴿لِتَكُوْنَ لِمَنْ خَلَقَكَ آيَةً﴾.

---

(١) النجوة: المكان المرتفع. انظر "الصحاح" مادة: (نجا).

ويحتمل أن يكون المراد: ننجيك بجسدك مصاحبًا درعك، لتكون علامة لمن وراءك من بني إسرائيل على معرفتك وأنك هلكت، والله أعلم.

وقد كان هلاكه وجنوده في يوم عاشوراء.

كما قال الامام البخاري في"صحيحه"(١):

حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبي بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة واليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: «ما هذا اليوم الذي تصومونه؟» فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون. قال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «أنتم أحق بموسى منهم فصوموا».

وأصل هذا الحديث في"الصحيحين"وغيرهما.والله أعلم.

قصة هلاك قارون بالخسف

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آَتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآَخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ

(١) البخاري (٤٦٨٠)، ومسلم (١٣٠٩).

عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ * تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٧٦-٨٣].

قال الشوكاني رحمه الله(١) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ﴾ أي: جاوز الحد في التجبر والتكبر عليهم: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ جمع كنز وهو المال المدخر: ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به: ﴿لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ﴾ قال الفراء: أي: تميلهم بثقلها. والعصبة: الجماعة التي يتعصب بعضها لبعض، ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ أي: لا تبطر ولا تأشر: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: البطرين الأشرين: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: واطلب فيما أعطاك الله من الأموال الدار الآخرة فأنفقه فيما يرضاه الله لا في التجبر والبغي:

(١) "فتح القدير" (٤/٢٤٤-٢٤٧).

﴿وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ قال الحسن وقتادة: معناه: لا تضيع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه:

﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ أي: أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك بما أنعم به عليك من نعم الدنيا وقيل أطع الله واعبده كما أنعم عليك(١): ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: لا تعمل فيها بمعاصي الله: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ في الأرض: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي﴾ على علم مني بوجوه المكاسب، وقيل على علم من الله باستحقاقي إياه. ﴿وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي: لا يسألون سؤال استعتاب كما في قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل:٨٤]. وإنما يسألون سؤال تقريع وتوبيخ.

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ أي: غيبناه وغيبنا داره في الأرض. ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي: ما كان له جماعة يدفعون ذلك عنه، ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يقول كل واحد منهم متندمًا على ما فرط منه من التمني، قال النحاس: أحسن ما قيل في هذا إن القوم تنبهوا فقالوا: وي. والمتندم من العرب يقول في خلال ندمه: وي. اهـ باختصار وتصرف يسير.

---

(١) ولا مانع من حمل الآية على المعنيين؛ إذ لا تنافي بينهما كما هو مقرر في كتب أصول التفسير.

هلاك بني إسرائيل بالطاعون

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

قوله تعالى: ﴿حِطَّةٌ﴾ قال الحسن وقتادة أي: احطط عنا خطايانا.

قوله: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ جاء تفسيرها في حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قيل لبني إسرائيل: ﴿ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا: حبة في شعرة(١).

وقوله: ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الرجز: هو العذاب كما قاله ابن عباس ومجاهد وغيرهما وذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله أن المقصود بهذا العذاب هو الطاعون واستدل على ذلك بحديث أسامة بن زيد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن هذا الوجع أو السقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٣)، ومسلم (٣٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

قلت: وقد جاء في بعض روايات حديث أسامة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الطاعون رجز أو عذاب أرسل على بني إسرائيل أو على من كان قبلكم وهذه الرواية في "الصحيحين".(١)

وفي رواية لأحمد في "مسنده"(٢): «إن هذا الوباء رجز أهلك الله به الأمم قبلكم».

هلاك سبأ بسيل العرم

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آَيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ﴾ [سبأ:١٥-١٧].

---

(١) البخاري (٣٤٧٣)، ومسلم (٢٢١٨).

٢ رواه أحمد(٥/٢٠٧)

والمقصود بالعرم أي: الماء الغزير كما في "تفسير ابن كثير".

وسيأتي - إن شاء الله - ذكر السبب في هلاكهم في السبب السابع عشر: كفران النعم وعدم شكرها. من الفصل الثاني.

هلاك أصحاب السبت بالمسخ

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

وسيأتي إن شاء الله ذكر سبب هلاكهم في السبب السادس عشر: الحيل المحرمة من الفصل الثاني.

هلاك أصحاب الفيل بالحجارة

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قال مجاهد: ﴿أَبَابِيْلَ﴾ أي: شتى متتابعة مجتمعة.

وسيأتي إن شاء الله ذكر سبب هلاكهم في السبب الثاني عشر: استحلال الكعبة من الفصل الثاني.

هلاك كسرى والروم

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك كسرى ثم لا يكون كسرى بعده وقيصر ليهلكنَّ ثم لا يكون قيصر بعده، ولتقسمن كنوزهما في سبيل الله»(١).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله(٢): كسرى لقب لكل من ولي مملكة الفرس وقيصر لقب لكل من ولي مملكة الروم. اهـ

وقال الإمام النووي رحمه الله(٣): قال الشافعي وسائر العلماء معناه لا يكون كسرى بالعراق ولا قيصر بالشام كما كان في زمنه صلى الله عليه وسلم، فأعلمنا صلى الله عليه وسلم بانقطاع ملكهما في هذين الإقليمين، فكان كما قال صلى الله عليه وسلم، فأما كسرى فانقطع ملكه، وزال بالكلية، من جميع الأرض، وتمزق ملكه كل ممزق، واضمحل بدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم،

وأما قيصر فانهزم من الشام، ودخل أقاصي بلاده، فافتتح المسلمون بلادهما(٤)، واستقرت للمسلمين، ولله الحمد، وأنفق المسلمون كنوزهما في سبيل الله.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٢٧)، ومسلم (٢٩١٨).

(٢) "الفتح" (٦/٧٢٣).

(٣) في شرحه على مسلم (١٨/٢٤٩-٢٥٠).

(٤) وكان بداية جهادهم في آخر خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم استمر جهادهم

هلاك الدجال بالشام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يأتي المسيح من قبل المشرق همته المدينة حتى ينزل دبر أحد ثم تصرف الملائكة وجهه قبل الشام وهنالك يهلك»(١)

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدجال ذات غداة، فخفض فيه ورفع،٢ حتى ظنناه في طائفة النخل٣، فلما رحنا إليه، عرف ذلك فينا، فقال: «ما شأنكم؟» قلنا: يا رسول الله، ذكرت الدجال غداة، فخفضت فيه ورفعت، حتى ظنناه في طائفة النخل، فقال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج ولست فيكم، فامرؤٌ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم، إنه شاب قطط٤،

في خلافة عمررضي الله عنه ، حتى حصل للمسلمين النصر عليهم، وأصاب كسرى وقيصر هزيمة منكرة، وأُنفقت كنوزهما في سبيل الله، في خلافة عمر. انظر "البداية والنهاية" (٧/٢-١٣٦).

(١) أخرجه مسلم (١٣٨٠).

(٢) أي:حقره وصغره ثم عظمه وفخمه لعظم فتنته.

(٣) أي:ظننا أنه قريب من نخل المدينة.

(٤) أي:شديد جعودة الشعر.

عينه طافئة(١)،

كأني أشبهه بعبدالعزى بن قطن[٢]، فمن أدركه منكم، فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف،

إنه خارج خلة بين الشام والعراق[٣]، فعاث يمينًا، وعاث[٤] شمالًا، يا عباد الله، فاثبتوا». قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «أربعون يومًا: يوم كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم» قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟! قال: «لا اقدروا له قدره»

---

١ أي:ذهب نورها أو بارزةوفيها بصيص من نور.

٢ رجل من بني المصطلق من خزاعة هلك في الجاهلية.

٣ أي:طريقاًبينهما.

٤ العيث:أشد الفساد.

قلنا: يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟! قال: «كالغيث، استدبرته الريح[١]، فيأتي على القوم، فيدعوهم فيؤمنون به، ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر، والأرض فتنبت، فتروح عليهم[٢] سارحتهم[٣]، أطول ما كانت ذرىً[٤]، وأسبغه ضروعًا[٥]، وأمده خواصر، ثم يأتي القوم: فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون ممحلين[٦] ليس بأيديهم شيء من أموالهم، ويمر بالخربة[٧]، فيقول لـها: أخرجي كنوزك، فتتبعه كنوزها،

---

١ أي:جاءت بعده والمراد بيان سرعة إفساده في الأرض.

٢ أي:ترجع عليهم

٣ أي:المال السائم.

٤ وهي أعالي الأسنمة.

٥ أي:أطوله لكثرة اللبن.

٦ أي:ينقطع عنهم المطر وتيبس الأرض والكلأ.

٧ أي:الموضع الخراب.

كيعاسيب النحل[١]، ثم يدعو رجلًا ممتلئًا شبابًا[٢]، فيضربه بالسيف، فيقطعه جزلتين[٣]، رمية الغرض[٤]، ثم يدعوه، فيقبل ويتهلل وجهه يضحك، فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء، شرقي دمشق، بين مهرودتين[٥]، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين، إذا طأطأ رأسه قطر[٦]،وإذا رفعه تحدر تحدر منه جمان كاللؤلؤ[٧]، فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات، ونفسه ينتهي حيث حيث ينتهي طرفه، فيطلبه حتى يدركه بباب لُدّ[٨]، فيقتله، ثم يأتي عيسى ابن مريم قومًا قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هو كذلك، إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان[٩] لأحدٍ بقتالهم، بقتالهم، فاحرز عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب[١٠]

---

١ أي:ذكورها.

٢ أي:في عنفوان شبابه.

٣ أي:قطعتين.

٤ أي:يرميه رمية كرمي النشاب إلى الهدف.

٥ أي:بين ثوبين مصبوغين.

٦ أي:الماء منه.

٧ أي:ينحدر منه الماء على هيئة الؤلؤ في صفائه

٨ لد:بلدة قريبة من بيت المقدس في فلسطين.

٩ أي:لا طاقة.

١٠ أي:غليظ الأرض ومرتفعها.

ينسلون[١]، فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية[٢]، فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر نبي الله عيسى وأصحابه، حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار لأحدكم اليوم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف[٣]، في رقابهم، فيصبحون فرسى[٤]كموت نفس واحدة[٥]، ثم ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[٦]، ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيرًا كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا، لا يكن منه بيت مدر[٧]ولا وبر، فيغسل الأرض، حتى يتركها كالزلفة[٨]، ثم يقال للأرض: أنبتي أنبتي ثمرك، وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[٩] من الرمانة، ويستظلون بقحفها، بقحفها، ويبارك في الرسل[١٠]،

---

١ أي:يسرعون، والمراد يظهرون من كل مكان.

٢ بلدة مطلة على البحيرة في طرف الجبل،وهي الآن تحت سيطرة اليهود لعنهم الله.

٣ أي:الدود.

٤ أي:قتلى.

٥ أي:يموتون دفعة واحدة.

٦ أي:ريحهم المنتنة.

٧ أي:طين صلب.والوبر:الخباء.

٨ أي:المرآة.

٩ أي:الجماعة.

١٠ أي:اللبن.

حتى أن اللقحة[١] من الإبل، لتكفي الفئام[٢] من الناس، واللقحة من البقر، لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم، لتكفي الفخذ من الناس[٣]، فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحًا طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن، وكل مسلم، ويبقى شرار الناس، يتهارجون فيها تهارج الحمر[٤]، فعليهم تقوم الساعة»(٥).

هلاك يأجوج ومأجوج

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تفتح(٦) يأجوج ومأجوج فيخرجون كما قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ٧يَنْسِلُونَ(٨)﴾ حَدَبٍ٧يَنْسِلُونَ(٨)﴾ [الأنبياء:٩٦]. فيعمون(٩) الأرض، وينحاز منهم المسلمون. المسلمون. حتى تصير بقية المسلمين في مدائنهم وحصونهم. ويضمون إليهم

---

١ أي:اللبون.

٢ أي:الجماعة.

٣ أي:دون القبيلة.

٤ أي:يجامع الرجال النساء علانية بحضرة الناس كما تفعل الحمير ولا يكترثون لذلك.

(٥) رواه مسلم (٢٩٣٧).

(٦) أي: يفتحون سدهم.

(٧) حدب. أي: مرتفع من الأرض.

(٨) ينسلون. أي: يسرعون.

(٩) فيعمون: من العموم.

مواشيهم. حتى أنهم ليمرون بالنهر فيشربونه حتى ما يذرون فيه شيئًا، فيمر آخرهم على أثرهم، فيقول قائلهم: لقد كان بهذا المكان مرة ماء. ويظهرون على الأرض، فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم ولننازلن(١) أهل السماء، حتى إن إن أحدهم ليهز حربته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم. فيقولون: قد قتلنا أهل السماء! فبينما هم كذلك إذ بعث الله دواب كنغف الجراد(٢). فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد، يركب بعضهم بعضًا، فيصبح المسلمون لا يسمعون لهم حسًّا. فيقولون: من رجل يشري نفسه وينظر ما فعلوا؟! فينزل منهم رجل قد وطن نفسه على أن يقتلوه، فيجدهم موتى، فيناديهم ألا أبشروا؛ فقد هلك عدوكم. فيخرج الناس ويخلون سبيل مواشيهم. فما يكون لهم رعي إلا لحومهم. فتشكر(٣) عليها كأحسن ما شكرت من نبات أصابته قط»(٤).

---

(١) لننازلن. أي: لنحاربن.

(٢) النغف: دود يكون في أنوف الإبل والغنم.

(٣) فتشكر. أي: تسمن وتمتلئ شحمًا.

(٤) حسن: أخرجه أحمد (٣/٧٧)، وابن ماجه (٤٠٧٩)، وحسنه شيخنا في "الصحيح المسند" (٤٠٧)، وصححه العلامة الألباني في "الصحيحة" (١٧٩٣).

قصص بعض الهالكين في الزلازل والآيات

قال ابن الجوزي رحمه الله في "المدهش"(١/ ٧١-٧٥)

زلزلت الأرض على عهد عمر في سنة عشرين ودامت الزلازل في سنة أربع وتسعين أربعين يوما وقعت الأبنية الشاهقة وتهدمت أنطاكية

وفي سنة أربع وعشرين ومائتين زلزلت فرغانة فمات فيها خمسة عشر ألفا

وفي السنة التي تليها رجفت الأهواز وتصدعت الجبال وهرب أهل البلد إلى البحر والسفن ودامت ستة عشر يوما

وفي السنة التي تليها مطر أهل تيما مطراً وبرداً كالبيض فقتل بها ثلاثمائة وسبعين إنساناً وسمع في ذلك صوت يقول ارحم عبادك اعف عن عبادك ونظروا إلى أثر قدم طولها ذراع بلا أصابع وعرضها شبر ومن الخطوة إلى الخطوة خمسة أذرع أو ست فاتبعوا الصوت فجعلوا يسمعون صوتا ولا يرون شخصاً

وفي سنة ثلاث وثلاثين ومائتين رجفت دمشق رجفة حتى انقضت منها البيوت وسقطت على من فيها فمات خلق كثير وانكفأت قرية في الغوطة على أهلها فلم ينج منهم إلا رجل واحد وزلزلت أنطاكيا فمات منها عشرون ألفا

وفي السنة التي تليها هبت ريح شديدة لم يعهد مثلها فاتصلت نيفا وخمسين يوما وشملت بغداد والبصرة والكوفة وواسط و عبادان والأهواز ثم ذهبت إلى همدان

فأحرقت الزرع ثم ذهبت إلى الموصل فمنعت الناس من السعي فتعطلت الأسواق

وزلزلت هراه فوقعت الدور

وفي سنة ثمان وثلاثين وجه طاهر بن عبد الله إلى المتوكل حجراً سقط بناحية طبرستان وزنه ثمانمائة وأربعون درهما أبيض فيه صدع وذكروا أنه سمع لسقوطه هدة أربع فراسخ في مثلها وأنه ساخ في الأرض خمسة أذرع.

وفي سنة أربعين ومائتين خرجت ريح من بلاد الترك فمرت بمرو فقتلت خلقا كثيراً بالزكام ثم صارت إلى نيسابور وإلى الري ثم إلى همذان وحلوان ثم إلى العراق فأصاب أهل بغداد وسر من رأى حمى وسعال وزكام

وجاءت كتب من المغرب أن ثلاث عشرة قرية من قرى القيروان خسف بها فلم ينج من أهلها إلا اثنان وأربعون رجلا سود الوجوه فأتوا القيروان فأخرجهم أهلها وقالوا أنتم مسخوط عليكم فبنى لهم العامل حظيرة خارج المدينة فنزلوها

وفي سنة إحدى وأربعين ماجت النجوم في السماء وجعلت تتطاير شرقاً وغرباً كالجراد من قبل غروب الشمس إلى الفجر ولم يكن مثل هذا إلا عند ظهور رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي السنة التي تليها رجمت قرية يقال لها السويدا ناحية مصر بخمسة أحجار فوقع حجر منها على خيمة أعرابي فاحترقت ووزن منها حجر فكان فيه عشرة أرطال وزلزلت الري وجرجان وطبرستان ونيسابور وأصبهان وقم وقاشان كلها

في وقت واحد وزلزلت الدامغان فهلك من أهلها خمسة وعشرون ألفا وتقطعت جبال ودنا بعضها من بعض وسمع للسماء والأرض أصوات عالية فهلك من أهلها وسار جبل باليمن عليه مزارع حتى أتى مزارع قوم آخرين ووقع طائر أبيض دون الرخمة وفوق الغراب على دلبة[١] بحلب لسبع مضين من رمضان فصاح يا معشر الناس اتقوا الله الله الله حتى صاح أربعين صوتا ثم طار وجاء من الغد فصاح أربعين صوتا ثم طار فكتب صاحب البريد بذلك وأشهد خمسمائة إنسان سمعوه ومات رجل في بعض كور الأهواز فسقط طائر أبيض على جنازته فصاح بالفارسية و الخورية إن الله قد غفر لهذا الميت ولمن شهده .

وفي سنة خمس وأربعين ومائتين زلزلت أنطاكية فسقط منها ألف وخمسمائة دار ووقع من سورها نيف وتسعون برجاً وسمع أهلها أصواتا هائلة من كوى المنازل وسمع أهل تنيس صيحة هائلة دامت فمات منها خلق كثير وذهبت جيله بأهلها.

وفي سنة خمسين وثلاثين ومائتين مطرت قرية حجارة بيضاء وسوداء .

وفي سنة ثمان وثمانين زلزلت دنبل في الليل فأصبحوا ولم يبق من المدينة إلا اليسير فأخرج من تحت الهدم خمسون ومائة ألف ميت وفي سنة تسع عشرة وثلاثمائة عدل الحاج عن الجادة خوفا من العرب فرأوا في البرية صور الناس من حجارة ورأوا امرأة قائمة على تنور وهي من حجارة والخبز الذي في التنور من حجارة

١أي: شجرة

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة هبت ريح بفم الصلح شبت بالتنين خرقت دجلة حتى ذكر أنها بانت أرضها وأهلكت خلقاً كثيراً واحتملت زورقاً منحدراً وفيه دواب فطرحته في أرض جوخى[١]

وفي سنة عشرين وأربعمائة جاء برد هائل ووقعت بردة حزرت بمائة وخمسين رطلا فكانت كالثور النائم

وفي سنة أربع وثلاثين زلزلت تبريز فهدم سورها وقلعتها وهلك تحت الهدم خمسون ألفاً

وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة كانت بأذربيجان زلازل انقطعت منها الحيطان فحكى من يعتمد على قوله أنه كان قاعداً في إيوان[٢] فانفرج حتى رأى السماء من وسطه ثم عاد

وفي سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلة بفلسطين هلك فيها خمسة عشر ألفاً وانشقت صخرة بيت المقدس ثم عادت فالتأمت وغاب البحر مسيرة يوم فساخ في الأرض فدخل الناس يلتقطون فرجع عليهم فأهلك خلقاً كثيراً منهم

وفي سنة اثنتين وستين خسف بأيلة[٣]

---

١ جوخى:قرية من عمل بغداد

٢ الإيوان: الصُّفة العظيمة

٣ بلد بين (ينبع) و(مصر)

وفي سنة ست وخمسمائة سمع ببغداد صوت هدة عظيمة في أقطار بغداد في الجانبين قال شيخنا أبو بكر ابن عبد الباقي أنا سمعتها فظننت حائطا قد وقع ولم يعلم ما ذاك ولم يكن في السماء غيم فيقال رعد

وفي سنة سبع وقعت زلزلة بناحية الشام فوقع من سور (الرها[1]) ثلاثة عشر برجاً وخسف بسميساط[2] وقلب بنصف القلعة

وفي سنة إحدى عشرة زلزلت الأرض ببغداد يوم عرفة فكانت الحيطان تمر وتجيء

وفي سنة خمس عشرة وقع الثلج ببغداد فامتلأت منه الشوارع والدروب ولم يسمع قبله بمثله

وفي سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة كانت زلزلة بجنزة أتت على مائتي ألف وثلاثين ألفا فأهلكتهم وكانت في مقدار عشرة فراسخ في مثلها

وفي السنة التي تليها خسف بجنزة[3] وصار مكان البلد ماء أسود وقدم التجار من أهلها فلزموا المقابر يبكون على أهليهم وزلزلت حلوان فتقطع الجبل وهلك خلق كثير وفي سنة اثنين وخمسين وخمسمائة كانت زلازل بالشام في ثلاثة عشر بلداً من بلاد الإسلام فمنها ما هلك كله ومنها ما هلك بعضه انتهى.

---

١ بلد بنواحي الشام

٢ بلد على الفرات

٣ بلدة عظيمة بإيران

قصص بعض الهالكين بالجدب وعموم الموت

قال ابن الجوزي رحمه الله في"المدهش"(١/ ٤٣-٤٤)

أجدبت الأرض في سنة ثماني عشرة فكانت الريح تسفي تراباً كالرماد فسمي عام الرمادة وجعلت الوحوش تأوي إلى الإنس فآلى عمر ألا يذوق سمناً ولا لبناً ولا لحماً حتى يحيى الناس واستسقى بالعباس فسقوا وفيها كان طاعون عمواس مات فيه أبو عبيدة ومعاذ وأنس .

وفي سنة أربع وستين وقع طاعون بالبصرة وماتت أم أميرهم فما وجدوا من يحملها.

وفي سنة ست وتسعين كان طاعون الجارف هلك في ثلاث أيام سبعون ألفا ومات فيه لأنس ثمانون ولدا وكان يموت أهل الدار فيطين الباب عليهم[١] .

وفي سنة إحدى وثلاثين ومائة مات أول يوم في الطاعون سبعون ألفاً وفي الثاني نيف وسبعون ألفاً وفي اليوم الثالث خمد الناس.

وفي سنة تسع عشرة وثلاث مائة كثر الموت وكان يدفن في القبر الواحد جماعة .

وفي سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة ذبح الأطفال وأكلت الجيف وبيع العقار برغفان واشتري لمعز الدولة كرّ دقيق بعشرين ألف درهم

١ أي يصير البيت قبرًا لهم لأنه لا يوجد من يخرجهم إلى المقبرة ويحفر لهم قبرًا

وفي سنة أربع وأربعين وثلاثمائة عمت الأمراض البلاد فكان يموت أهل الدار كلهم

وفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة أصاب أهل البصرة حر فكانوا يتساقطون موتى في الطرقات

وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة عم القحط فأكلت الميتة وبلغ المكوك[١] من بزر البقلة سبع دنانير والسفر جلة والرمانة ديناراً والخيارة واللينوفرة ديناراً وورد الخبر من مصر بأن ثلاثة من اللصوص نقبوا داراً فوجدوا عند الصباح موتى أحدهم على باب النقب والثاني على رأس الدرجة والثالث على الثياب المكورة وفي السنة التي تليها وقع وباء فكان تحفر زبية[٢] لعشرين وثلاثين فيلقون فيها وتاب الناس كلهم وأراقوا الخمور ولزموا المساجد

وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة وقع الوباء وبلغ الرطل من التمر الهندي أربعة دنانير

وفي سنة اثنتين وستين وأربعمائة اشتد الجوع والوباء بمصر حتى أكل الناس بعضهم بعضا وبيع اللوز والسكر بوزن الدراهم والبيضة بعشرة قراريط وخرج وزير صاحب مصر إليه فنزل عن بغلته فأخذها ثلاثة فأكلوها فصلبوا فأصبح الناس لا يرون إلا عظامهم تحت خشبهم وقد أكلوا.

---

١ المكوك:مكيال

٢ زُبية:: الرابية، وحفيرة الأسد

وفي سنة أربع وستين وأربعمائة وقع الموت في الدواب حتى أن راعيا قام إلى الغنم وقت الصباح ليسوقها فوجدها كلها موتى انتهى.

القسم الثالث: أسباب الهلاك

وقد قسمت أسباب الهلاك إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول: في أسباب الهلاك التي تعود إلى الاعتقاد.

الفصل الثاني: في أسباب الهلاك التي تعود إلى عدم الإنضباط بالشرع.

الفصل الثالث: في أسباب الهلاك التي تعود إلى معاملة المخلوقين بعضهم مع بعض.

الفصل الأول: في أسباب الهلاك التي تعود إلى الاعتقاد

السبب الأول: الشرك

اعلم أن الشرك هو السبب الأساسي لهلاك كثير من الأمم، فقوم نوح إنما هلكوا بسبب عبادتهم غير الله، وهكذا: عاد، وثمود، وقوم شعيب، وغيرهم من الأمم، هلكوا بسبب هذا، دعاهم أنبياءهم إلى التوحيد، ونبذ الشرك، فأبوا إلا الإشراك، فأهلكهم الله.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ سِيْرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرَهُمْ مُشْرِكِيْنَ﴾ [الروم:٤٢].

قال ابن جرير – رحمه الله – في "تفسيره" (١٨/ ٥١٤):

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد – صلى الله عليه وعلى آله وسلم -: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله من قومك: سيروا في البلاد، فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم، وكذّبوا رسلَه، كيف كان آخر أمرهم، وعاقبة تكذيبهم رُسلَ الله وكفرهم، ألم نهلكهم بعذاب منا، ونجعلهم عبرة لمن بعدهم،﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِيْنَ﴾، يقول: فَعَلنا ذلك بهم؛ لأن أكثرهم كانوا مشركين بالله مثلَهم. اهـ.

وقال ابن الجوزي – رحمه الله – في "زاد المسير" (٦/ ٣٠٦):

قوله تعالى: ﴿سِيْرُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي : سافِروا ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلُ﴾ أي : الذين كانوا قبلكم؛ والمعنى : انظروا إلى مساكنهم وآثارهم ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِيْنَ﴾ المعنى : فأُهلكوا بشِركهم. اهـ

واعلم أن الشرك بالله عز وجل خطره عظيم جدًا فمن ذلك:

* أنه أعظم ذنب عصي الله به، قال الله تعالى عن لقمان وهو يوصي ابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وفي "الصحيحين" عن ابن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل: أي: الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك».

* ومن ذلك أنه أكبر الكبائر، كما في "الصحيحين" عن أبي بكرة.

* ومن ذلك أنه يحبط جميع الأعمال، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨].

* ومن ذلك أن الله لا يغفره أبدًا إذا مات صاحبه عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨].

* ومن ذلك أن المشرك محرم عليه الجنة، ومأواه النار خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢].

* ومن ذلك أنه تنقص لرب العالمين، كما ذكر ذلك ابن القيم رحمه الله في "الجواب الكافي" (٢١٢).

* ومن ذلك أن الشرك يحل دم صاحبه وماله، قال الله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥].

وغير ذلك من المخاطر العظيمة.

السبب الثاني :الكفر وأعظم أنواعه الشرك

قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد:٣٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: سأل أهل مكة النبي أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي[١] الجبال عنهم، فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن تستأني بهم،[٢] وإن شئت أن تؤتيهم الذي سألوا؛ فإن كفروا أهلكوا كما أهلكت من قبلهم، قال: «لا، بل أستأني بهم» فأنزل الله عز وجل هذه الآية: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:٥٩][٣]

---

١ "ينحي"أي:يبعد

٢ "إن شئت أن تستأني بهم"قال السندي:أي تنتظروتتربص أن يهديهم الله ويوفقهم

٣ رواه أحمد(٢٣٣٣)بإسناد صحيح وهو في الصحيح المسند(٢٧٠) لشيخنا رحمه الله.

السبب الثالث:الاستهزاء برسل الله

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (٦) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٧) فَأَهْلَكْنَا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ﴾ (الزخرف: ٦ – ٨

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية :

(يقول تعالى ذكره: فأهلكنا أشدّ من هؤلاء المستهزئين بأنبيائهم بطشاً إذا بطشوا فلم يعجزونا بقواهم وشدة بطشهم، ولم يقدروا على الامتناع من بأسنا إذ أتاهم، فالذين هم أضعف منهم قوة أحرى أن لا يقدروا على الامتناع من نقمتنا إذا حلَّت بهم. يقول جلّ ثناؤه: ومضى لهؤلاء المشركين المستهزئين بك ولمن قبلهم من ضربائهم مثلنا لهم في أمثالهم من مكذّبي رسلنا الذين أهلكناهم، يقول: فليتوقع هؤلاء الذين يستهزئون بك يا محمد من عقوبتنا مثل الذي أحللناه بأولئك الذين أقاموا على تكذيبك).

وقال تعالى (ولقد اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (لأنعام: ١٠)

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية من سورة الأنعام

(يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، مسليًّا عنه بوعيده المستهزئين به عقوبةَ ما يلقى منهم من أذىَ الاستهزاء به، والاستخفاف في ذات الله: هَوِّنْ عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفِّين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامضِ لما أمرتك به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرار بي والإذعان

لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيلَ أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمة لهم، وحلول المَثُلات بهم،

فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومُك بك "فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون" ، يعني بقوله:"فحاق" ، فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم "ما كانوا به يستهزئون" ، يقول: العذابُ الذي كانوا يهزءون به، وينكرون أن يكون واقعًا بهم على ما أنذرتهم رسلهم .انتهى

وقال تعالى(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)[الرعد: ٣٢]

السبب الرابع : الإستهزاء بآيات اللّه

قال الله تعالى (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللهَّ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ)(الروم:١٠)

قال ابن جرير رحمه الله(يقول تعالى ذكره: ثم كان آخر أمر من كفر من هؤلاء الذين أثاروا الأرض وعمروها، وجاءتهم رسلهم بالبينات بالله، وكذّبوا رسلهم، فأساءوا بذلك من فعلهم.

(السُّوأَى): يعني الخَلَّة التي هي أسوأ من فعلهم؛ أما في الدنيا، فالبوار والهلاك، وأما في الآخرة فالنار لا يخرجون منها، ولا هم يستعتبون).

السبب الخامس :إيذاء الرسل

قال الله تعالى:(أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُّ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩) قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهَّ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آَبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠) قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَّ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهَّ وَعَلَى اللهَّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهَّ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آَذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهَّ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا

لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣) وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ)(إبراهيم:٩_١٤)

وقال تعالى:(كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)(غافر:٥)

وقال تعالى في سياق قصة صالح مع قومه(وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (٥١) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وأنحينا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)(النمل:٤٨_٥٣)

السبب السادس: التكذيب بالرسل

قال الله تعالى: عن قوم هود عليه السلام: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةًوَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:١٣٩].

وقال تعالى : ﴿وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ

خَاوِيَةعَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ (الحج:٤٢-٤٤)

وقال تعالى : ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾(الفرقان:٣٧)

وقال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢) وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ (ص:١٢-١٤)

قال ابن كثير رحمه الله :يقول تعالى مخبراً عن هؤلاء القرون الماضية، وما حل بهم من العذاب والنكال والنقمات في مخالفة الرسل وتكذيب الأنبياء وقد تقدمت قصصهم مبسوطة في أماكن متعددة.

وقوله: { أُولَئِكَ الأحْزَابُ } أي: كانوا أكثر منكم وأشد قوة وأكثر أموالا وأولاداً فما دافع ذلك عنهم من عذاب الله من شيء لما جاء أمر ربك ولهذا قال: { إِنْ كُلٌّ إِلا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ } فجعل علة هلاكهم هو تكذيبهم بالرسل فليحذر المخاطبون من ذلك أشد الحذر

وقال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ * إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ * فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ * فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ * وَلَقَدْ آَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [المؤمنون:٤٥-٤٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «إن الله عزوجل إذا أراد رحمة أمة من عباده قبض نبيها،قبلها فجعله لها فرطًا(١) وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حي، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها، حين كذبوه وعصو أمره»(٢).

---

(١) فرطًا: قال القاضي عياض: يريد أنه يكون مقدمًا بين أيديهم يشفع لهم وينفعهم كالذي يتقدم الوارد في نفعهم. اهـــ من "إكمال المعلم" (١/٢٥٦).

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٨٨).

السبب السابع: التكذيب بالآيات

قال الله تعالى: عن قوم نوح عليه السلام:

(فكذبوه فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ)(الأعراف:٦٤)

وقال تعالى: (كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ)(الأنفال:٥٤)

السبب الثامن: التكذيب بالبعث

قال الله تعالى: (الْحَاقَّةُ (١) مَا الْحَاقَّةُ (٢) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ (٣) كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ (٤) فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ (٥) وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)(الحاقة:١-٨)

قال ابن كثير رحمه الله: الحاقةُ من أسماء يوم القيامة؛ لأن فيها يَتحقَّقُ الوَعدُ والوَعيد؛ ولهذا عَظَّم تعالى أمرَها فقال: { وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ } ؟

ثم ذكر تعالى إهلاكه الأمم المكذبين بها فقال تعالى: { فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } وهي الصيحة التي أسكتتهم، والزلزلة التي أسكنتهم. هكذا قال قتادة: الطاغية الصيحة. وهو اختيار ابن جرير .

وقال مجاهد: الطاغية الذنوب،

وكذا قال الربيع بن أنس، وابن زيد: إنها الطغيان، وقرأ ابن زيد: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا } [الشمس: ١١].

وقال السُّدِّي: { فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ } قال: يعني: عاقر الناقة.

{ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ } أي: باردة. قال قتادة، والربيع، والسدي، والثوري: { عاتية } أي: شديدة الهبوب.

قال قتادة: عتت عليهم حتى نَقَّبت عن أفئدتهم.

وقال الضحاك: { صرصر } باردة { عاتية } عتت عليهم بغير رحمة ولا بركة.انتهى

وقال تعالى :(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ (٤١) وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ)(القصص:٣٩-٤٢)

قال ابن كثير رحمه الله :

وقوله: { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الأرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لا يُرْجَعُونَ } أي: طغوا وتجبروا، وأكثروا في الأرض الفساد، واعتقدوا أنه لا معاد ولا قيامة ، { فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ .إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } [الفجر : ١٣ ، ١٤]، ولهذا قال ها هنا: { فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ } أي: أغرقناهم في البحر في صبيحة واحدة، فلم يبق منهم أحد.

السبب التاسع: التكذيب مطلقا

قال الله تعالى :(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)(آل عمران:١٣٧)

وقال تعالى:(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِّ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِّ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (الأعراف:٩٦-٩٩)

وقال تعالى:(كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٥) فَأَذَاقَهُمُ اللهُّ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)(الزمر:٢٥-٢٦)

السبب العاشر: مخالفة السنة والزيغ عنه

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم(١) واختلافهم على أنبياءهم، فإذا أمرتكم بشيء فاتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»(٢)

---

(١) سؤالهم أي: فيما لا يعنيهم كما في "فيض القدير" للمناوي.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم إني رأيت الجيش بعينيَّ وإني أنا النذير العريان(١) فالنجاء، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا(٢) وانطلقوا على مهلتهم وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم(٣)، فذلك مثل من أطاعني واتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب ما جئت به من الحق»(٤).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل عمل شره(٥) ولكل شره فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك»(١).

---

(١) «وإني أنا النذير العريان» قال النووي في "شرح مسلم" (٤٩/١٥): قال العلماء أصله أن الرجل إذا أراد إنذار قومه وإعلامهم بما يوجب المخافة نزع ثوبه وأشار به إليهم إذا كان بعيدًا منهم ليخبرهم بما دهمهم وأكثر ما يفعل هذا ربيئة القوم وهو طليعتهم ورقيبهم قال: وإنما يفعل ذلك لأنه أبين للناظر وأغرب وأشنع منظرًا، فهو أبلغ في استحثاثهم في التأهب للعدو. اهـ

(٢) «فأدلجوا» أي: ساروا من أول الليل.

(٣) «واجتاحهم» أي: استأصلهم.

(٤) أخرجه البخاري (٧٢٨)، ومسلم (٢٢٨٣).

(٥) «الشرة»: الحرص على الشيء والنشاط فيه، و«الفترة»: الوهن والضعف. انظر "فيض القدير" (٦٥٠/٢).

وقال الطحاوي في "شرح مشكل الآثار" (٢٧٠/٣): الشرة: هي الحدة في الأمور التي يريدها

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة ذرفت(٢) منها العيون ووجلت(٣) منها القلوب، فقلنا: يا رسول الله، إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا؟ قال: «قد تركتكم على البيضاء(٤) ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ(٥)، وعليكم بالطاعة، وإن عبد حبشيًّا؛ فإنما المؤمن(٦) كالجمل

المسلمون من أنفسهم في أعمالهم التي يتقربون بها إلى ربهم عز وجل وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب منهم فيها ما دون الحدة التي لابد لهم من التقصير عنها والخروج منها إلى غيرها وأمرهم بالتمسك من الأعمال الصالحة بما قد يجوز دوامهم عليه ولزومهم إياه حتى يلقوا ربهم عز وجل عليه. اهـ

(١) أخرجه أحمد (٢/٢١٠)، وصححه شيخنا رحمه الله في "الصحيح المسند" (٨٠٢).

(٢) ذرفت: أي: سالت.

(٣) أي: خافت.

(٤) على البيضاء أي: الملة والحجة الواضحة التي لا تقبل الشبه أصلًا.

(٥) النواجذ: الأضراس قيل أراد به الجد في لزوم السنة كفعل من أمسك الشيء بين أضراسه وعض عليه منعًا من أن ينتزع.

(٦) أي: شأن المؤمن من ترك التكبر والتزام التواضع.

الأنف(١) حيثما قيد(٢) انقاد»(٣).

قلت: فهذه الأدلة، تدل على أن: الذي يزيغ عن السنة، ويخالفها، يعرض نفسه للهلاك - والعياذ بالله - وهناك أناس خالفوا السنة فهلكوا، والنماذج على ذلك كثيرة، ولكني سأذكر نموذجًا واحدًا، رغبةً في الاختصار:

فعن أبي حميد الساعدي رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك فلما جاء وادي القرى(٤)، إذا امرأة في حديقة لها، فقال النبي صلى صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «اخرصوا»(٥) وخرص رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة أوسق(٦)، فقال لها: «أحصي(٧) ما يخرج منها» فلما أتينا تبوك، قال:

---

(١) الأنف أي: الذي يجعل الزمام في أنفه فيجره من يشاء من صغير أو كبير إلى حيث يشاء.

(٢) حيثما قيد أي: سيق.

(٣) حسن لغيره، أخرجه ابن ماجه (٤٣)، وأحمد (١٢٦/٤)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٩٣٧).

(٤) وادي القرى: مدينة قديمة بين المدينة والشام.

(٥) الخرص: هو الحزر والتقدير حكى الترمذي عن بعض أهل العلم أن تفسيره أن الثمار إذا إذا أدركت من الرطب والعنب مما تجب فيه الزكاة بعث السلطان خارصًا ينظر فيقول يخرج من هذا كذا وكذا، فإذا جاء وقت الجذاذ أخذ منهم العشر. اهـ من "فتح الباري" (٤٠٣/٣).

(٦) الوسق: ستون صاعًا.

(٧) «أحصي ما يخرج منها» أي: احفظي عدد كيلها وأصل الإحصاء العدد بالحصى؛ لأنهم= لأنهم= =كانوا لا يحسنون الكتابة، فكانوا يضبطون العدد بالحصى. اهـ من

«إما إنها ستهب الليلة ريح شديدة، فلا يقومن أحد، ومن كان معه بعير فليعقله»(١) فعقلناها، وهبت ريح شديدة، فقام رجل، فألقته بجبل طيء(٢).

"الفتح"٣/٤٠٤).

(١) «فليعقله» أي: يشده بالعقال وهو الحبل.

(٢) أخرجه البخاري (١٤٨١)، ومسلم (١٣٩٢).

السبب الحادي عشر: الاختلاف في القرآن

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رجلًا قرأ آية، سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم خلافها، فأخذت بيده، فأتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «كلاكما محسن».

قال شعبة(١): أظنه قال: «لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»(٢).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: هجَّرت(٣) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا قال: فسمع أصوات رجلين اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف في وجهه الغضب، فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب»(٤).

وعن جندب بن عبد الله البجلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اقرءوا القرآن ما ائتلفت(٥) عليه قلوبكم فإذا اختلفتم(٦) فيه فقوموا(٧)»(١).

---

(١) أحد رواة الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٢٤١٠).

(٣) «هجرت» أي: بكرت.

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٦٦).

(٥) «ائتلفت» أي: اجتمعت.

(٦) «فإذا اختلفتم فيه» قال الحافظ ابن حجر أي: في فهم معانيه.

(٧) «فقوموا» قال الحافظ أي: تفرقوا لئلا يتمادى بكم الاختلاف إلى الشر. اهـ "الفتح"

قال الإمام النووي رحمه الله(٢): قوله صلى الله عليه وسلم : «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم في الكتاب» وفي رواية: «اقرءوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم، فإذا اختلفتم فيه فقوموا».

المراد بهلاك من قبلنا هنا: هلاكهم في الدين، بكفرهم، وابتداعهم، فحذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مثل فعلهم، والأمر بالقيام عند الاختلاف في القرآن، محمول عند العلماء، على اختلاف لا يجوز، أو اختلاف يوقع فيما لا يجوز، كاختلاف في نفس القرآن، أو في معنى منه، لا يسوغ فيه الاجتهاد، أو اختلاف يوقع في شك، أو شبهة، أو فتنة وخصومة، أو شجار، ونحو ذلك.

وأما الاختلاف في استنباط فروع الدين منه، ومناظرة أهل العلم في ذلك، على سبيل الفائدة، وإظهار الحق، واختلافهم في ذلك، فليس منهيًّا عنه، بل هو مأمور به، وفضيلة ظاهرة، وقد أجمع المسلمون على هذا، من عهد الصحابة إلى الآن، والله أعلم. اهـ

قلت: ويدخل في الاختلاف المذموم ما يفعله المبتدعة من تأويل بعض النصوص المخالفة لآرائهم إلى ما يوافق أهواءهم فيحصل من وراء ذلك الفرقة والاختلاف والجدال.

(٧٢٠/٨).

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦١)، ومسلم (٢٦٦٧).

(٢) "شرح النووي على مسلم" (٤٣٥/١٦).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفي هذا الحديث والذي قبله(١) الحض على الجماعة والألفة والتحذير من الفرقة والاختلاف والنهي عن المراء(٢) في القرآن بغير حق ومن شر ذلك أن تظهر دلالة الآية على شيء يخالف الرأي فيتوسل بالنظر وتدقيقه إلى تأويلها وحملها على ذلك الرأي ويقع اللجاج في ذلك والمناضلة عليه(٣). اهـ

وعن عمر بن شعيب عن أبيه عن جده قال: لقد جلست أنا وأخي مجلسًا ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوسٌ عند باب من أبوابه فكرهنا أن نفرق بينهم فجلسنا حَجْرَةً(٤) إذ ذكروا آية من القرآن فتماروا فيها حتى ارتفعت أصواتهم فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبًا قد احمر وجهه يرميهم بالتراب ويقول: «مهلًا يا قوم؛ بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتب بعضها ببعضًا إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا بل يصدق بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا به وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»(٥).

---

(١) يقصد حديث ابن مسعود وحديث جندب.

(٢) أي: الجدال.

(٣) "فتح الباري" (٨/٧٢١).

(٤) (حجرة) أي: ناحية.

(٥) أخرجه أحمد (٢/١٨١)، وابن ماجه (٨٥) وحسنه الشيخ الألباني في "ظلال الجنة" (٤٠٦).

وأخرجه ابن ماجه (٨٥) بلفظ: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان(١) من الغضب قلت: ويجمع بين الروايتين أنهم تنازعوا في آيات فيها ذكر القدر كما في بعض روايات الإمام أحمد رحمه الله (٢/ ١٩٦).

السبب الثاني عشر: التفرق والاختلاف

عن أنس بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن بني إسرائيل تفرقت إحدى وسبعين فرقة فهلكت سبعون فرقة وخَلَصَتْ فرقة واحدة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة تهلك إحدى وسبعون فرقة وتخلص فرقة» قالوا: يا رسول الله، من تلك الفرقة؟ قال: «الجماعة الجماعة»(٢).

فعلم من هذا أن التفرق سبب للهلاك والعياذ بالله.

وقد حذرنا الله عز وجل من التفرق وأمرنا بالاعتصام بحبله

---

(١)" فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان." أي: فغضب فاحمر وجهه من أجل الغضب إحمرار يشبه فقء حب الرمان في وجهه قاله السندي رحمه الله، في "حاشيته على ابن ماجه" (١/٦٥).

(٢) صحيح بشواهده، أخرجه أحمد (٣/١٤٥)، وابن ماجه (٣٩٩٣) وصححه العلامة الألباني في "ظلال الجنة" (١/٣٢).

فقال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى:١٣].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣١-٣٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران:١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقد كان الأنبياء يكرهون الفرقة فهذا هارون يقول لأخيه موسى عليهما السلام: ﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ [طه:٩٤].

وقد حذرنا نبينا صلى الله عليه وسلم من التفرق وأمرنا بلزوم الجماعة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا: فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله(١) جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال(٢)، وكثرة السؤال(٣)، وإضاعة(٤) المال(٥)».

قال القرطبي(٦) : قوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوْا﴾ أي: اجتمعوا على الاعتصام بالكتاب والسنة، اعتقادًا وعملاً، فتتفق كلمتكم وينتظم شتاتكم فتتم مصالح الدنيا والدين وتسلموا من الاختلاف والافتراق الذي حصل لأهل الكتابين. اهـ

---

(١) «بحبل الله» أي: بشرعه ودينه. قاله القرطبي في "المفهم" (١٦٣/٥).

(٢) قال القرطبي في "المفهم" (١٦٣/٥) معناه أن الله حرم الخوض في الباطل وفيما لا يعني من الأقوال وحكايات أحوال الناس التي لا يسلم صاحبها من الغيبة والنميمة والبهتان والكذب. اهـ

(٣) «وكثرة السؤال» قال القاضي عياض: فيه تأويلات أنه من مسألة الناس ما بأيديهم، وقيل يحتمل النهي عن كثرة السؤال والتنطع في المسائل فيما لم ينزل، وقد كان السلف يكرهون ذلك ويرونه من التكلف وقد يكون كثرة سؤال الرجل الناس عن أخبارهم وأحوالهم وتفاصيل أمورهم فيدخل بذلك الحرج. اهـ قال القرطبي والأوجه حمل الحديث على عمومه فيتناول جميع تلك الوجوه كلها. اهـ "المفهم" المرجع السابق.

(٤) «إضاعة المال» صرفه في غير وجوهه الشرعية وتعريضه للتلف والهلاك.

(٥) أخرجه مسلم (١٧١٥).

(٦) في "المفهم" (١٦٣/٥).

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله، إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: «نعم» قلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: «نعم، وفيه دخن» قلت: وما دخنه؟ قال: «قوم يستنون بغير سنتي ويهتدون بغير هديي تعرف منهم وتنكر» فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: «نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها» فقلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ قال: «نعم، هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا» قلت: يا رسول الله، فما ترى إن أدركني ذلك؟ قال: «تلزم جماعة المسلمين وإمامهم» فقلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال: «فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض على أصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك».(١)

فقوله صلى الله عليه وسلم : «فاعتزل تلك الفرق كلها» دال على وجوب اعتزال الحزبية فإنها فرقت بين المسلمين، وشتت شملهم وزرعت في قلوبهم التشاحن والتباغض؛ فالرجل الحزبي من كان معه في حزبه فهو حبيبه وصديقه، وإن كان من أفسق الناس ومن كان في غير حزبه فهو عدوه، وإن كان من أحسن الناس استقامة، فالحذر الحذر من هذه الحزبيات؛ فوالله إنها لم تجلب للمسلمين خيرًا قط، والواجب على المسلمين أن يكونوا أمة واحدة، متحابين مجتمعين على الكتاب والسنة، وعلى فهم سلف الأمة وبهذا يفوزوا وينتصروا على أعدائهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٠٦)، ومسلم (١٨٤٧).

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ * فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٢-٥٣].

السبب الثالث عشر: الفسق

اعلم أن الفسق هو الخروج عن طاعة الله وأنه نوعان:

- فسق أكبر مخرج من الملة، وضده الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ [السجدة:٢٠].

- وفسق أصغر لا يخرج عن الملة، وضده العدالة كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات:٦].قاله العلامة ابن عثيمين رحمه الله(١).

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء:١٦].

قال العلامة السعدي رحمه الله:

يخبر تعالى أنه إذا أراد أن يهلك قرية من القرى الظالمة ويستأصلها بالعذاب أمر مترفيها أمرًا قدريًّا ففسقوا فيها، واشتد طغيانهم: ﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ﴾ أي: كلمة العذاب التي لا مرد لها: ﴿فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾.(٢)

---

(١) في "تفسيره" (١/٢٠٥).

(٢) "تفسير السعدي" (٤٥٥).

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف:٣٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [البقرة:٥٨-٥٩].

قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا حِطَّةٌ﴾ أي: احطط عنا خطايانا، ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ الرجز: هو العذاب، ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: يخرجون عن طاعة الله عز وجل.(١)

---

(١) "تفسير الشيخ ابن عثيمين". (١/٢٠٠-٢٠٢).

السبب الرابع عشر: الغلو والتنطع

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا(١).

قال الإمام النووي رحمه الله: قوله: «هلك المتنطعون» أي: المتعمقون الغالون المجاوزن الحدود في أقوالهم وأفعالهم(٢).

وقال في "رياض الصالحين"(٣): «المتنطعون» المتعمقون المتشددون في غير موضع التشديد.

وقال القاضي عياض: ومعنى هلاكهم: يريد في الآخرة. اهـ

وقال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء المتكلف للبحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم(٤).

وقال في "فتح المجيد": ومن التنطع الامتناع من المباح مطلقًا كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز ومن لبس الكتان والقطن ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب. اهـ(٥)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) "شرح مسلم" (٤٣٧/١٦).

(٣) رقم الحديث (١٤٨).

(٤) "معالم السنن" (١٣/٧).

(٥) "فتح المجيد" (٢٧٠-٢٧١).

و قال شيخ الإسلام: والزهد النافع المشروع هو الزهد فيما لا ينفع في الآخرة، فأما الزهد في النافع فجهل وضلال. اهـ باختصار.(١)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة جمع: «هلم القط لي» فلقتُّ له حصيات هن حصى الخذف، فلما وضعهن في يده قال: «نعم، بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين».(٢)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وقوله: «إياكم والغلو في الدين» عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال والغلو: مجاوزة الحد بأن يزاد الشيءفي حمده أو ذمه، على ما يستحق ونحو ذلك،

والنصارى أكثر غلوًا في الاعتقادات والأعمال من سائر الطوائف، وإياهم نهى الله عن الغلو في القرآن في قوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء:١٧١]

وسبب هذا اللفظ العام: رمي الجمار وهو داخل فيه، فالغلو فيه مثل الرمي بالحجارة الكبار، ونحو ذلك بناءًا على أنه أبلغ من الحصى الصغار، ثم علل ذلك بأن ما أهلك من قبلنا إلا الغلو في الدين كما ترى في النصارى، وذلك يقتضي: أن مجانبة هديهم

(١) "مجموع الفتاوى" (١٠/٥١١).

(٢) حسن. أخرجه أحمد (١/٢١٥)، وابن ماجه (٣٠٢٩)، وأبو يعلى (٢٤٢٧)، والحاكم (١/٤٦٦)، وصححه العلامة الألباني في "الصحيحة" (١٢٨٣) وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "اقتضاء الصراط المستقيم"(١/٢٨٩-٢٩٠): إسناده صحيح على شرط مسلم.

مطلقًا أبعد عن الوقوع فيما به هلكوا، وأن المشارك لهم في بعض هديهم يخاف عليه أن يكون هالكًا. اهـ(١)

السبب الخامس عشر: مناقشة الحساب

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ليس أحد يحاسب إلا هلك» قالت: قلت: يا رسول الله، جعلني الله فداءك، أليس يقول الله عزوجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الإنشقاق:٧-٨] قال: «ذاك العرض، يعرضون ومن نوقش الحساب هلك».(٢)

وفي رواية: «من نوقش الحساب عذب»(٣).

قال القرطبي رحمه الله: المناقشة: الاستقصاء في المطالبة بالجليل والحقير والصغير والكبير وترك المسامحة في شيء من ذلك. قال الهروي يقال: انتقشت منه حقي. أي: استقصيته منه.

وقوله: «عذب» ظاهره عذاب النار جزاءً عن سيئات ما أظهره حسابه ويدل على ذلك قوله: «هلك» أي: بالعذاب في النار. اهـ(٤)

---

(١) "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/٢٧٨-٢٩٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣) البخاري (٦٥٣٦)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٤) "المفهم" (٧/١٥٧).

قلت: وقيل: نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب؛ لما فيه من التوبيخ ولكن رجح النووي الأول وقال: ومعناه أن التقصير غالب في العباد فمن استقصي عليه ولم يسامح هلك ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء. اهـ(١)

قوله: «ذاك العرض» قال القرطبي: يعني: أن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تعرض أعمال المؤمن عليه ويوقف عليها تفصيلًا حتى يعرف منة الله تعالى عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة، كما جاء في حديث ابن عمر الآتي بعد هذا. اهـ

قلت: وهو يشير إلى حديث ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يدنى المؤمن من ربه يوم القيامة حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه، فيقول: هل تعرف؟ فيقول أي رب أعرف قال فإني قد سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم فيعطى صحيفة حسناته وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رؤوس الخلائق هؤلاء الذي كذبوا على الله».(٢)

(١) "شرح النووي على مسلم" (١٧/٢٠٤).

(٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

السبب السادس عشر : الافتتان بالدجال

عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدجال: «إن معه ماءً ونارًا، فناره ماء بارد، وماؤه نار، فلا تهلكوا».

قال أبو مسعود: وأنا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم .(١)

وفي رواية لأحمد عن حذيفة أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لأنا أعلم بما مع الدجال منه، إن معه نارًا تحرق ونهر ماءٍ بارد، فمن أدركه منكم فلا يهلك به، ليغمض عينيه وليقع في التي يراها نارًا فإنها ماء بارد».(٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال في الدجال: «أعور هيجان(٣) أزهر(٤) كأن رأسه أصلة(٥) أشبه الناس بعبد العزى بن قطن فإما هَلَكَ الهُلَّك(٦) فإن ربكم ليس بأعور».(٧)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٤- و٢٩٣٥).

(٢) أحمد (٥/٣٩٣).

(٣) «هيجان» أي: أبيض.

(٤) «أزهر» أي: مستنير.

(٥) «أَصَلَة» هي الأفعى وقيل: هي الحية العظيمة الضخمة والعرب تشبه الرأس الصغير الكثير الحركة برأس الحية. كما في "النهاية".

(٦) «الهُلَّك» جمع هالك، قال ابن الأثير أي: فإن هلك به ناس جاهلون وضلوا فاعلموا أن الله ليس بأعور.

(٧) حديث صحيح لغيره. رواه أحمد (١/٢٤٠)، والطيالسي (٢٦٧٨)، وابن حبان (٦٧٩٦)، والطبراني (١١٨٤٣)، وصححه العلامة الألباني في "الصحيحة" (١١٩٣).

تنبيه:

إذا أردت أخي القارئ التوسع في ذكر أحاديث الدجال فعليك بقراءة كتاب "قصة المسيح الدجال" للشيخ الألباني رحمه الله، وكتاب "تحذير العقال من فتنة الدجال" لأخينا الفاضل أبي محمد عبد الحميد الحجوري حفظه الله.

الفصل الثاني: في الأسباب التي تعود إلى عدم الانضباط بالشرع

السبب الأول: الذنوب

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ [الأنعام:٦].

وقال تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال:٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٥].

قوله: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾

قال العلامة السعدي رحمه الله: أي: يجتهد على أعمال المعاصي التي هي إفساد في الأرض ﴿وَيُهْلِكَ﴾ بسبب ذلك ﴿الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ فالزروع والثمار والمواشي تتلف وتنقص وتقل بركتها بسبب العمل في المعاصي. اهـ(١)

وقال تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:٢٦].

قال السعدي رحمه الله: أي: ينهون الناس عن اتباع الحق ويبعدون بأنفسهم عنه. اهـ(٢)

وقال تعالى: ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة:٤٢].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ * أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

---

(١) "تفسير السعدي" (٧٦).

(٢) "تفسير السعدي" (٢١٦).

قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [النحل:٤٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: أي: في تقلبهم في المعايش واشتغالهم بها من أسفار ونحوها من الأشغال الملهية.

وقوله: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: أو يأخذهم الله في حال خوهم من أخذه لهم فإنه يكون أبلغ وأشد؛ فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد. اهـ(١)

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

قوله: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

قال ابن كثير رحمه الله:

أي: ولكن كذبوا رسولهم فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾أي: الكافرة ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا. ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُوْنَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم. اهـ

---

(١) "تفسير ابن كثير" (٧٤٤) ط دارالسلام.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هلكت يا رسول الله، قال: «وما أهلكك» قال: وقعت على امرأتي في رمضان. قال: «هل تجد ما تعتق رقبة» قال: لا. قال: «فهل تستطيع أن تصوم شهرين متتابعين» قال: لا. قال: «فهل تجد ما تطعم ستين مسكينًا» قال: لا. قال: ثم جلس، فأتي النبي صلى الله عليه وسلم بعرق(١) فيه تمر فقال: «تصدق بهذا» قال: على أفقر منا! فما بين لابتيها٢ أهل بيت أحوج إليه منا. فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتى بدت أنيابه، ثم قال: «اذهب فأطعمه أهلك»٣

وعن ابن مسعود قال: إن قريشًا أبطئوا٤ عن الإسلام فدعا عليهم النبي صلى الله عليه وسلم فأخذتهم سنة٥ حتى هلكوا فيها وأكلوا الميتة والعظام فجاءه أبو سفيان

١" العرق"هو الزنبيل قال النووي:والعرق عند الفقهاء ما يسع خمسة عشر صاعاًوهي ستون مداً لستين مسكيناًلكل مسكين مد.

٢" فما بين لابتيها"هما الحرتان والمدينة بين حرتين والحرة الأرض الملبسة حجارة سوداء.

٣ رواه البخاري(١٩٣٦)ومسلم(١١١١).

٤" أبطؤوا"أي:تأخروا.

٥ "سنة"أي :قحط وجدب وشدة.

فقال: يا محمد جئت تأمر بصلة الرحم وإن قومك هلكوا فادع الله فقرأ: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ﴾ [الدخان:١٠]

ثم عادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى﴾ [الدخان:١٦] يوم بدر.(١)

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله، والحمد لله تملآن - أو تملأ- ما بين السماء والأرض، والصلاة نور، والصدقة برهان، والصبر ضياء، والقرآن حجة لك أو عليك، كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها».(٢)

---

(١) رواه البخاري(١٠٢٠)واللفظ له ومسلم (٢٧٩٨)

(٢) أخرجه مسلم (٢٢٣).

قوله: «كل الناس يغدوا فبائع نفسه فمعتقها، أو موبقها».

قال الإمام النووي: معناه كل إنسان يسعى بنفسه فمنهم من يبيعها لله تعالى، بطاعته فيعتقها من العذاب، ومنهم من يبيعها للشيطان والهوى باتباعهما فيوبقهما أي: يهلكهما، والله أعلم.(١)

وقال الإمام البخاري رحمه الله (٦٤٩٢) باب: ما يتقى من محقرات الذنوب

حدثنا أبو الوليد، حدثنا مهدي عن غيلان عن أنس رضي الله عنه قال: إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشر، إن كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات» قال أبو عبد الله(٢): يعني: من المهلكات.

---

(١) "شرح النووي على مسلم" (٣/٩٧).

(٢) هو البخاري.

وعن عبادة بن قرط أوقرص قال: إنكم تعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الموبقات.(١)

وعن سهل بن سعدرضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إياكم ومحقرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كقوم نزلوا بطن واد فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبها تهلكه».(٢)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «اجتنبوا السبع الموبقات» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال:«الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا والتولي(٣) يوم الزحف، وقذف المحصنات(٤) الغافلات المؤمنات».(٥)

---

(١)صحيح:رواه أحمد(٧٩/٥)وصححه شيخنا في" الصحيح المسند"(٥١٤)

(٢) صحيح. أخرجه أحمد (٣٣١/٥)، والطبراني في "الكبير" (٥٨٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في "الصحيحة" (٣٨٩).

(٣) «التولي» أي: الإدبار من وجوه الكفار، «يوم الزحف» أي: وقت ازدحام الطائفتين. والزحف الجيش الداهم سمي به لكثرته وثقل حركته، يرى كأنه يزحف زحفًا أي: يدب دبيبًا. اهـ "فيض القدير" (١٩٩/١).

(٤) المحصنات: أي العفيفات.

(٥) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إن الناس قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: «هل تمارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قال: «فهل تمارون في الشمس ليس دونها سحاب؟» قالوا: لا. قال: «فإنكم ترونه كذلك يحشر الناس يوم القيامة فيقول: من كان يعبد شيئًا فليتبع، فمنهم من يتبع الشمس، ومنهم من يتبع القمر، ومنم من يتبع الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم، فيقولون: هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا جاء ربنا عرفناه، فيأتيهم الله فيقول: أنا ربكم فيقولون: أنت ربنا فيدعوهم فيضرب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته، ولا يتكلم يومئذ أحد إلا الرسل، وكلام الرسل يومئذ: اللهم سلم سلم، وفي جهنم كلاليب(١) مثل شوك السعدان(٢)، هل رأيتم شوك السعدان؟» قالوا: نعم. قال: «فإنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله، تخطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوبق بعمله، ومنهم من يخردل ثم ينجو...»

الحديث.(٣)والشاهد من هذا الحديث قوله صلى الله عليه وسلم : «فمنهم من يوبق بعمله» وفي رواية: «ومنهم الموبق بعمله»

---

(١) كلاليب"جمع كلوب وهي حديدة معوجة الرأس.

(٢) شوك السعدان"نبت ذو شوك يضرب به المثل في طيب مرعاه.

(٣) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٣)

قال الحافظ ابن حجر: يوبق

والموبق بمعنى الهلاك[١]

وعن كعب بن مالك رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة توبته، قال: فوالله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن أكون كذبته فأهلك كما هلك الذين كذبوا؛ فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الله الوحي شر ما قال لأحد فقال تبارك وتعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦].[٢]

.وعن عائشة رضي الله عنها قالت

: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا أراد أن يخرج سفراً أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه فأقرع بيننا في غزاة غزاها فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب[٣] فأنا أحمل في هودج وأنزل فيه فسرنا حتى إذا

---

١ "الفتح" (١١/٤٦٢).

٢ أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

٣ (أنزل الحجاب):أي أنزلت الآيات التي تفرض الحجاب على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم وعلى النساء المؤمنات.

فرغ رسول الله صلى الله عليه و سلم من غزوته تلك وقفل[١] ودنونا من المدينة آذن[٢] ليلة بالرحيل فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت
حتى جاوزت الجيش[٣] فلما قضيت شأني[٤] أقبلت إلى الرحل فلمست صدري فإذا عقد[٥]لي من جزع أظفار[٦] قد انقطع فرجعت فالتمست عقدي فحبسني ابتغاؤه[٧]فأقبل الذين يرحلون لي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت كنت أركب وهم يحسبون أني فيه
وكان النساء إذ ذاك خفافا لم يثقلن ولم يغشهن اللحم[٨] وإنما يأكلن العلقة[٩]من الطعام فلم يستنكر القوم[١٠]حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه وكنت جارية حديثة السن فبعثوا الجمل وساروا فوجدت عقدي بعد ما استمر[١١] الجيش

---

١ (قفل) رجع .

٢ (آذن) أعلم .

٣ (جاوزت الجيش) خرجت من معسكرهم وابتعدت.

٤ (شأني) حاجتي التي خرجت من أجلها.

٥ (عقد) ما يوضع في العنق من الحلي والزينة .

٦ (جزع أظفار) خرز في سواده بياض كالعروق نسبة إلى بلدة باليمن يؤتى به منها .

٧ (فحبسني ابتغاؤه) أخرني طلبه والبحث عنه .

٨ (لم يغشهن اللحم) لم يغط جسمهن أي لم يكنَّ سمينات.

٩ (العلقة) القليل من الطعام الذي يسد الجوع .

١٠ (فلم يستنكر القوم) لم يشعروا بخفة الوزن و لم يختلف عليهم وجودها فيه وعدمه.

١١ (استمر) ذهب ومضى .

فجئت منزلهم وليس فيه أحد فأممت منزلي[1] الذي كنت به فظننت أنهم سيفقدونني سيفقدونني فيرجعون إلي فبينا أنا جالسة غلبتني عيناي فنمت وكان صفوان بن المعطل السلمي ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلي فرأى سواد إنسان نائم فأتاني وكان يراني قبل الحجاب فاستيقظت باسترجاعه[2] حين أناخ راحلته فوطئ يدها[3] فركبتها فانطلق يقود بي الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين[4] في نحر الظهيرة[5] فهلك من هلك[6] وكان الذي تولى الإفك[7] عبد الله بن الله بن أبي ابن سلول فقدمنا المدينة

---

١ (فأممت منزلي) قصدت مكاني الذي كنت فيه .

٢ (باسترجاعه) بقوله ﴿ إنا لله وإنا إليه لراجعون ﴾ .

٣ (فوطئ يدها) وضع قدمه على يد الراحلة ليسهل الركوب عليها .

٤ (معرسين) من التعريس وهو النزول ويغلب على النزول في آخر الليل .

٥ (نحر الظهيرة) النحر أعلى الصدر أو أوله ونحر كل شيء أوله أو أعلاه والمراد بنحر الظهيرة وقت اشتداد الحر وبلوغ الشمس منتهاها في الارتفاع .

٦ (فهلك من هلك) تسبب بالهلاك لنفسه وبالحديث في شأني .

٧ (تولى الإفك) تصدى له وتصدر الحديث عنه والإفك البهتان والكذب والمراد افتراؤهم على أم المؤمنين رضي الله عنها الوقوع في الفاحشة.

فاشتكيت[١] بها شهراً يفيضون[٢] من قول أصحاب الإفك ويريبني[٣] في وجعي أني لا أرى من النبي صلى الله عليه و سلم اللطف الذي كنت أرى منه حين أمرض وإنما يدخل فيسلم ثم يقول (كيف تيكم[٤]) .

لا أشعر بشيء من ذلك[٥] حتى نقهت[٦]

فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصع[٧] متبرزنا[٨] لا نخرج إلا ليلا إلى ليل وذلك قبل أن نتخذ الكنف[٩] قريبا من بيوتنا وأمرنا أمر العرب الأول في البرية[١٠] أو في

---

١ (فاشتكيت) مرضت.

٢ (يفيضون) يشيعون من الإفاضة وهي التوسعة والتكثير .

٣ (يريبني) يشككني ويوهمني حصول أمر.

٤ (تيكم) إشارة للمؤنث .

٥ (بشيء من ذلك) الذي يقوله أهل الإفك .

٦ (نقهت) برئت من مرضي و لم يرجع لي كمال الصحة .

٧ (المناصع) مواضع خارج المدينة كانوا يخرجون إليها لقضاء حاجتهم .

٨ (متبرزنا) الموضع الذي نتبرز فيه من البراز وهو اسم لما يخرج من الإنسان من فضلات وقد يطلق على الموضع الذي يتبرز فيه .

٩ (الكنف) جمع كنيف وهو الساتر سمي به المكان المتخذ لقضاء الحاجة لأن قاضي الحاجة يستتر به .

١٠ (البرية) الصحراء خارج المدينة .

التنزه[١] فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبي رهم نمشي فعثرت في مرطها[٢] فقالت تعس تعس مسطح فقلت لها بئس ما قلت أتسبين رجلاً شهد بدراً فقالت يا هنتاه[٣] ألم تسمعي ما قالوا فأخبرتني بقول أهل الإفك فازددت مرضاً إلى مرضي فلما رجعت إلى بيتي دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم فقال (كيف تيكم) . فقلت ائذن لي إلى أبويَّ قالت وأنا حينئذ أريد أن أستيقن الخبر[٤] من قبلهما فأذن لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتيت أبويَّ فقلت لأُمي ما يتحدث به الناس ؟ فقالت يا بنية هوني على نفسك الشأن فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة[٥] عند رجل يحبها ولها ضرائر[٦] إلا أكثرن عليها[٧] . فقلت سبحان الله ولقد ولقد يتحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت الليلة حتى أصبحت لا يرقأ[٨] لي دمع ولا أكتحل بنوم[٩] ثم أصبحت فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم علي بن أبي طالب

---

١ (التنزه) طلب النزاهة أي البعد عن البيوت لإلقاء الفضلات .

٢ (مرطها) كساء من صوف أو غيره يلتحف به أو يؤتزر .

٣ (يا هنتاه) يا هذه نداء للبعيد خاطبتها بذلك لبعدها عما يخوض فيه الناس

٤ (أستيقن الخبر) أحصل على حقيقته.

٥ (وضيئة) جميلة حسنة من الوضاءة وهي الحسن .

٦ (ضرائر) جمع ضرة وهي من كانت تشاركها في زوجها أخرى أو زوجات سميت بذلك لأنها تتضرر بغيرها بالغيرة والقسم ونحو ذلك.

٧ (أكثرن عليها) القول في عيبها ونقصها .

٨ (يرقأ) ينقطع .

٩ (لا أكتحل بنوم) استعارة لعدم النوم من كثرة الهم والحزن.

طالب وأسامة ابن زيد حين استلبث الوحي[١] يستشيرهما في فراق أهله فأما أسامة أسامة فأشار عليه بالذي يعلم في نفسه من الود[٢] لهم فقال أسامة أهلك يا رسول الله ولا نعلم والله إلا خيراً وأما علي بن أبي طالب فقال يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسل الجارية تصدقك فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال (يا بريرة هل رأيت شيئاً يريبك) . فقالت بريرة لا والذي بعثك بالحق إن رأيت منها أمراً أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن العجين فتأتي الدواجن فتأكله . فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي فوالله ما علمت على أهلي إلا خيراً وقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيراً وما كان يدخل على أهلي إلا معي) . فقام سعد بن معاذ فقال يا رسول الله أنا والله أعذرك منه إن كان من الأوس ضربنا عنقه وإن كان من إخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك . فقام سعد ابن عبادة وهو سيد الخزرج وكان قبل ذلك[٣] رجلاً صالحاً ولكن احتملته الحمية[٤] فقال كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على ذلك. فقام أسيد بن الحضير فقال كذبت لعمر الله

---

١ (استلبث الوحي) أبطأ نزوله وتأخر .

٢ (الود) الثقة بهم والمحبة لهم وحسن الصلة .

٣ (قبل ذلك) قبل أن يقول ما قاله الآن ولا تعني نفي الصلاح عنه بعده وإنما تعني أنه لم يسبق منه موقف يتعلق بالحمية لقومه .

٤ (احتملته الحمية) أغضبه التعصب لقومه وحمله على الجهالة

والله لنقتلنه فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فنزل فخفضهم[١] حتى سكتوا وسكت وبكيت يومي لا يرقأ لي دمع ولا أكتحل بنوم فأصبح عندي أبواي قد بكيت ليلتين ويوما حتى أظن أن البكاء فالق[٢] كبدي قالت فبينا هما جالسان عندي وأنا أبكي إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكي معي فبينا نحن كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس ولم يجلس عندي من يوم قيل فيَّ ما قيل قبلها وقد مكث شهراً لا يوحى إليه في شأني شيء قالت فتشهد ثم قال (يا عائشة فإنه بلغني عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألممت[٣] بشيء فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه)

فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص[٤] دمعي حتى ما أحس منه قطرة وقلت لأبي أجب عني رسول الله صلى الله عليه وسلم قال والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لأمي أجيبي عني رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال قالت والله ما أدري ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيراً من القرآن فقلت إني والله لقد علمت

---

١ (فخفضهم) تلطف بهم حتى سكتوا .

٢ (فالق) من فلق إذا شق .

٣ (ألممت) فعلت ذنبا ليس من عادتك من الإلمام وهو النزول النادر غير المتكرر .

٤ (قلص) انقبض وارتفع .

أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس ووقر[١] في أنفسكم وصدقتم به ولئن قلت لكم إني بريئة والله يعلم إني لبريئة لا تصدقوني بذلك ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أني بريئة لتصدقني والله ما أجد لي ولكم مثلا إلا أبا يوسف إذ قال { فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون[٢] } . ثم تحولت إلى فراشي وأنا أرجو أن يبرئني الله ولكن والله ما ظننت أن ينزل في شأني وحيا ولأنا أحقر في نفسي من أن يتكلم بالقرآن في أمري ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم رؤيا يبرئني الله فوالله ما رام مجلسه[٣] ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٤] حتى إنه

ليتحدر[٥] منه مثل الجمان[٦] من العرق في يوم شات فلما سري[٧] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لي (يا عائشة احمدي الله فقد برأك الله) . فقالت لي أمي قومي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت لا والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله فأنزل الله تعالى { إن الذين جاؤوا بالإفك

---

١ (وقر) ثبت واستقر .

٢ (ما تصفون) ما تذكرون عني مما يعلم الله تعالى براءتي عنه

٣ (ما رام مجلسه) ما فارقه ولا قام منه .

٤ (البرحاء) العرق الشديد من البرح وهو شدة الحر أو الكرب أو غير ذلك من الشدائد .

٥ (ليتحدر) ينزل ويقطر .

٦ (الجمان) الؤلؤ واحده جمانة .

٧ (سري) كشف وأزيل .

عصبة[١] منكم } . الآيات فلما أنزل الله هذا في براءتي قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه والله لا أنفق على مسطح شيئا أبداً بعد ما قال لعائشة . فأنزل الله تعالى { ولا يأتل[٢] أولو الفضل[٣] منكم والسعة[٤] – إلى إلى قوله ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم } . فقال أبو بكر بلى والله إني لأحب أن يغفر الله لي فرجع إلى مسطح الذي كان يجري عليه . وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم يسأل زينب بنت جحش عن أمري فقال (يا زينب ما علمت ما رأيت) . فقالت يا رسول الله أحمي سمعي وبصري والله ما علمت عليها إلا خيرا . قالت وهي التي كانت تساميني[٥] فعصمها[٦] الله بالورع[٧] رواه البخاري(٢٦٦١)ومسلم(٢٧٧٠)

---

١ (عصبة) جماعة من العشرة إلى الأربعين .

٢ (يأتل) يحلف .

٣ (أولو الفضل) أصحاب الإحسان والصدقة .

٤ (السعة) البحبوحة في العيش والمال .

٥ (تساميني) تضاهيني بجمالها ومكانتها عند النبي صلى الله عليه و سلم من السمو وهو العلو العلو والارتفاع .

٦ (فعصمها) حفظها ومنعها من الخوض في الباطل .

٧ (الورع) شدة المحافظة على الدين.

والشاهد من هذا الحديث قولها: فهلك من هلك في شأني. وقولها في حمنة بنت جحش: فهلكت فيمن هلك. فاعتبرت ذلك هلاكًا بسبب هذا الذنب العظيم الذي فعلوه وهو الخوض في هذا الإفك والكذب والبهتان.

وعن عمران بن حصين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وهو في بعض أسفاره وقد تفاوت[١] بين أصحابه السير رفع بهاتين الآيتين صوته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ﴾ [الحج:١-٢] حتى بلغ آخر الآيتين قال فلما سمع أصحابه بذلك حثوا المطي[٢] وعرفوا أنه عند قول يقوله، فلما تأشبوا[٣] حوله، قال: «أتدرون أي يوم ذاك؟ قال: ذاك يوم ينادى آدم فيناديه ربه تبارك وتعالى: يا آدم، ابعث بعثًا إلى النار، فيقول: يا رب، وما بعث النار، قال: من كل ألف، تسع مائة وتسعة وتسعين في النار وواحد في الجنة» قال: فأبلس أصحابه[٤] حتى ما أوضحوا بضاحكة، فلما رأى ذلك، قال: «اعملوا، وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، إنكم لمع خليقتين ما كانتا مع شيء قط إلا كثرتاه، يأجوج ومأجوج، ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» قال: فأسري[٥] عنهم، ثم قال:

---

١ أي:حضوها والمطي:جمع المطية وهي الدابة تمطو في سيرها أي:تجد وتسرع في سيرها

٢ تأشبوا:قال في النهاية تدانوا وتضاموا

٣ أي:سكتوا حزنا.

٤ أي:ما تبسموا والضواحك:الأسنان التي تظهر عند التبسم.

٥ "فأسري":وفي رواية:"فسري":أي كشف وأزيل.

«اعملوا، وأبشروا، فوالذي نفس محمد بيده، ما أنتم في الناس إلا كالشامة[١] في جنب البعير، أو الرقمة[٢] في ذراع الدابة».[٣]

والشاهد منه: «ومن هلك من بني آدم وبني إبليس» فهم إنما هلكوا بسبب ذنوبهم.

وعن أبي وائل قال: غدونا على عبد الله بن مسعود يومًا بعدما صلينا الغداة[٤] فسلمنا بالباب، فأذن لنا قال: فمكثنا بالباب هنية[٥] قال: فخرجت الجارية فقالت: ألا تدخلون؟ فدخلنا فإذا هو جالس يسبح، فقال: ما منعكم أن تدخلوا وقد أذن لكم؟ فقلنا: لا إلا أنا ظننا أن بعض أهل البيت نائم. قال: ظننتم بآل أم عبد غفلة، قال: ثم أقبل يسبح حتى ظن أن الشمس قد طلعت فقال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ قال: فنظرت فإذا هي لم تطلع، فأقبل يسبح حتى ظن أن الشمس قد طلعت، قال: يا جارية، انظري هل طلعت؟ فنظرت فإذا هي قد طلعت، فقال: الحمد لله الذي أقالنا[٦] يومنا هذا – فقال مهدي أحد رواة الحديث- أحسبه قال: ولم يهلكنا بذنوبنا،

---

١ "كالشامة":قال في "تحفة الأحوذي"أي:الخال في الجسد معروفة.

٢ قال في "القاموس"الرقمتان:هنتان شبه ظفرين في قوائم الدابة.

٣ صحيح بشواهده. أخرجه أحمد (٤/٤٣٥)، والترمذي (٣١٦٩) وصححه الشيخ الألباني في"صحيح الترمذي".

٤ أي:صلاة الفجر.

٥ "هنية":أي قليلاًمن الزمان وهو تصغير هنة ويقال هنيهة أيضاً قاله ابن الأثير رحمه الله.

٦ "أقالنا"أي: عفا عنّا و لم يؤاخذنا من الإقالة وهي الرفع من السقوط.

بذنوبنا، قال: فقال رجل من القوم: قرأت المفصل البارحة كله، قال: فقال عبد الله: هذًّا[1] كهذِّ الشعر،

إنا لقد سمعنا القرائن[2] وإني لأحفظ القرائن التي كان يقرؤهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانية عشر من المفصل[3]

وسورتين من آل حم(٤).(٥)

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله عز وجل إذا أراد رحمة أمة من عباده، قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة عذبها ونبيها حيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلكتها، حين كذبوه وعصو أمره».(٦)

---

١ "الهذ":هو سرعة القراءةمن غير تأمل للمعنى كما ينشد الشعر.

٢ هي السور النظائر التي كان صلى الله عليه وسلم يقرن بينها في صلاته.

٣ المفصل: أوله من سورة (ق) وينتهي إلى سورة (الناس)على الصحيح قال النـــووي:وسمـــي مفصلًا لقصر سوره، وقرب انفصال بعضهن من بعض.

(٤) وسورتين من آل حم. يعني: من السور التي أولها حم.

(٥) أخرجه البخاري (٧٧٥)، ومسلم (٨٢٢) واللفظ له.

(٦) أخرجه مسلم (٢٢٨٨).

وعن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال للركن: أما والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم استلمك ما استلمتك، فاستلمه ثم قال: فما لنا وللرمل(١) إنما كنا راءينا(٢) به المشركين قد أهلكهم الله ثم قال: شيء صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا نحب أن نتركه.(٣)

وعن أبي البختري الطائي قال: أخبرني من سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم».(٤)

قال ابن الأثير رحمه الله: يعني: أنهم لا يهلكون حتى تكثر ذنوبهم وعيوبهم، فيستوجبون العقوبة، ويكون لمن يعذبهم عذر كأنهم قاموا بعذره في ذلك.(٥)

---

(١) "الرمل": هو اسراع المشي مع تقارب الخطا ولا يثب وثباً.

(٢) بوزن فاعلنا من الرؤية أي أريناهم بذلك الفعل أنا أقوياء وليس هو من الرياء.

(٣) أخرجه البخاري (١٦٠٥)، واللفظ له، ومسلم (١٢٧٠).

(٤) صحيح. أخرجه أحمد (٥/٢٩٣)، وأبو داود (٤٣٤٧)، وصححه شيخنا العلامة الوادعي رحمه الله في "الصحيح المسند".(١٥٢٤)

(٥) "النهاية".(٥٩٩).

وعن جبير بن نفير قال: لما فتحت قبرص وفرق بين أهلها فبكى بعضهم إلى بعض، رأيت أبا الدرداء جالسًا يبكي فقلت: يا أبا الدرداء ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام وأهله؟ قال: ويحك[١] يا جبير، ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره بينا هي أمة قاهرة ظاهرة[٢] لهم الملك تركوا أمر الله عز وجل فصاروا إلى ما ترى[٣]

قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

فمما ينبغي أن يعلم أن الذنوب والمعاصي تضر، ولا شك أن ضررها في القلوب كضرر السموم في الأبدان على اختلاف درجاتها في الضرر، وهل فى الدنيا والآخرة شرور وداء إلا سببه الذنوب والمعاصي.

فما الذي أخرج الأبوين[٤] من الجنة دار اللذة والنعيم والبهجة والسرور، إلى دار الآلام والأحزان والمصائب.

وما الذي أخرج إبليس من ملكوت السماء، وطرده ولعنه ومسخ ظاهره وباطنه، فجعلت صورته أقبح صورة وأشنعها، وباطنه أقبح من صورته وأشنع، وبدِّل بالقرب بعدًا وبالرحمة لعنة، وبالجمال قبحًا وبالجنة نارًا تلظى، وبالإيمان كفرًا وبموالاة الولي الحميد أعظم عداوة ومشاقة، وبزجل[٥] التسبيح والتقديس

١ ويحك: كلمة ترحم.

٢ ظاهرة: أي عالية غالبة.

٣ صحيح : أخرجه أحمد في "الزهد" (١٧٦).

٤ أي: آدم وحواء عليهما السلام.

٥ الزجل: قال في القاموس: الجلبة ورفع الصوت.

والتهليل، زجل الكفر والشرك والكذب والزور والفحش، وبلباس الإيمان لباس الكفر والفسوق والعصيان، فهان على الله غاية الهوان، وسقط من عينه غاية السقوط، وحلَّ عليه غضب الرب تعالى، فأهواه ومقته أكبر المقت، فأرداه؛ فصار قوادًا لكل فاسق ومجرم، رضيَ لنفسه بالقيادة بعد تلك العبادة والسيادة، فعياذًا بك اللهم من مخالفة أمرك وارتكاب نهيك.

وما الذي أغرق أهل الأرض كلهم حتى علا الماء فوق رأس الجبال.

وما الذي سلط الريح العقيم على قوم عاد حتى ألقتهم موتى على وجه الأرض، كأنهم أعجاز نخل خاوية، ودمرت ما مرت عليه من ديارهم وحروثهم وزروعهم ودوابهم، حتى صاروا عبرةً للأمم إلى يوم القيامة.

وما الذي أرسل على قوم ثمود الصيحة، حتى قطعت قلوبهم في أجوافهم، وماتوا عن آخرهم.

وما الذي رفع قرى اللوطية حتى سمعت الملائكة نبيح كلابهم، ثم قلبها عليهم، فجعل عاليها سافلها، فأهلكم جميعًا، ثم أتبعهم حجارة من سجيل، والسماء أمطرها عليهم، فجمع عليهم من العقوبة ما لم يجمعه على أمة غيرهم، ولإخوانهم أمثالها، وما هي من الظالمين ببعيد.

وما الذي أرسل على قوم شعيب سحاب العذاب كالظلل، فلما صار فوق رءوسهم أمطر عليهم نارًا تلظى.

وما الذي أغرق فرعون وقومه في البحر، ثم نقلت أرواحهم إلى جهنم، فالأجساد للغرق، والأرواح للحرق.

وما الذي خسف بقارون وداره وماله وأهله.

وما الذي أهلك القرون من بعد نوح بأنواع العقوبات، ودمرها تدميرًا.

وما الذي أهلك قوم صاحب يس بالصيحة، حتى خمدوا عن آخرهم.

وما الذي بعث على بني إسرائيل قومًا ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ(١) فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ(٢)﴾ [الإسراء:٥]، وقتلوا الرجال وسبوا الذراري والنساء، وأحرقوا الديار ونهبوا الأموال، ثم بعثهم عليهم مرة ثانية، فأهلكوا ما قدروا عليه، وتبَّروا ما علو تتبيرًا(٣).

وما الذي سلط عليهم بأنواع العذاب والعقوبات: مرة بالقتل، والسبي، وخراب البلاد، ومرة بجور الملوك، ومرة بمسخهم قردة وخنازير، وآخر ذلك أقسم الرب تبارك وتعالى: ﴿لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾ [الأعراف:١٦٧].(٤)

---

(١) ﴿بَأْسٍ شَدِيْدٍ﴾ أي: قوة وعدة وسلطنة شديدة.

(٢) ﴿فَجَاسُوْا خِلَالَ الدِّيَارِ﴾ أي: تملكوا بلادهم وسلكوا خلال بيوتهم أي: بينهم ووسطها، وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحدًا.

(٣) ﴿وَلِيُتَبِّرُوْا مَا عَلَوْا تَتْبِيْرًا﴾ أي: دمروا وخربوا ﴿مَا عَلَوْا﴾ أي: ما ظهروا عليه، قاله الحافظ ابن كثير رحمه الله.

(٤) "الداء والدواء" (٦٥-٦٧) بتحقيق الحلبي.

وقال رحمه الله:

ومن عقوباتها[١] أنها تستجلب مواد هلاك العبد في دنياه وآخرته، فإن الذنوب هي أمراض القلوب، متى استحكمت[٢] قتلت ولا بد. اهـ

فائدة حول أقسام الذنوب:

قال العلامة ابن القيم رحمه الله

ولما كانت الذنوب متفاوتة فى درجاتها ومفاسدها، تفاوتت عقوباتها في الدنيا والآخرة، بحسب تفاوتها، ونحن نذكر فيها بعون الله وحسن توفيقه فصلًا وجيزًا جامعًا،

فنقول :أصلها نوعان:

ترك مأمور.

وفعل محظور.

وهما الذنبان اللذان ابتلى الله سبحانه بهما أبوي الجن والإنس ، وكلاهما ينقسم باعتبار محله إلى ظاهر على الجوارح وباطن في القلوب، وباعتبار متعلقه إلى حق الله

١ أي:الذنوب والمعاصي.

٢ أي:الذنوب والمعاصي.

وحق خلقه، وإن كان كلُّ حقٍّ لخلقه فهو متضمن لحقه، لكن سمي حقًّا للخلق؛ لأنه يجب بمطالبتهم، ويسقط بإسقاطهم.

ثم هذه الذنوب تنقسم إلى أربعة أقسام:

ملكية، وشيطانية، وسبعية، وبهيمية، لا تخرج عن ذلك.

الذنوب الملكيَّة: أن يتعاطا ما لا يصلح له من صفات الربوبية: كالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلو، ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

ويدخل فى هذا الشرك بالرب تعالى، وهو نوعان:

شرك به في أسمائه وصفاته، وجعل آلهة أخرى معه.

وشرك به في معاملته.

وهذا الثاني قد لا يوجب دخول النار، وإن أحبط العمل الذي أشرك فيه مع الله غيره، وهذا القسم أعظم أنواع الذنوب، ويدخل فيه القول على الله بلا علم في خلقه وأمره، فمن كان من أهل هذه الذنوب فقد نازع الله سبحانه ربوبيته وملكه، وجعل له ندًّا، وهذا أعظم الذنوب عند الله، ولا ينفع معه عمل.

وأما الشيطانية: فالتشبه بالشيطان في الحسد، والبغي، والغش، والغل، والخداع، والمكر، والأمر بمعاصي الله وتحسينها، والنهي عن طاعة الله وتهجينها،[1] والابتداع في دينه، والدعوة إلى البدع والضلال، وهذا النوع يلي النوع الأول في المفسدة، وإن كانت مفسدته دونه.

---

١ "التهجين"هو التقبيح.

وأما السبعية: فذنوب العدوان، والغضب، وسفك الدماء، والتوثب على الضعفاء والعاجزين، ويتولد منها أنواع:

أذى النوع الإنساني، والجرأة على الظلم والعدوان.

وأما الذنوب البهيمية: فمثل الشره،[١] والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولد الزنا، والسرقة، وأكل أموال اليتامى، والبخل، والشحُّ،

والجبن،[٢]

والهلع،[٣] والجزع،[٤] وغير ذلك، وهذا القسم أكثر ذنوب الخلق؛ لعجزهم عن السبعية والملكية، ومنه يدخلون إلى سائر الأقسام، فهو يجرهم إليها بزمام، فيدخلون منه إلى الذنوب السبعية، ثم إلى الشيطانية، ثم منازعة الربوبية، والشرك في

---

١ "الشره":غلبة الحرص.

٢ "الجبن":هيئة حاصلة للقوة الغضبية بها يحجم عن مباشرة ما ينبغي وما لا ينبغي قاله الجرجاني في "التعريفات" (ص:٧٣) وقال في "القاموس" ورجل جبان أي:هيوب للأشياءلا يقدم عليها جمعه جبناء.

٣ "الهلع":قال في "القاموس":الهلع أفحش الجزع والهلوع من يجزع ويفزع من الشر ويحرص ويشح على المال أو الضجور لا يصبر على المصائب.

٤ "الجزع":قال في "القاموس" هو نقيض الصبر.

الوحدانية، ومن تأمل هذا حق التأمل تبين له أن الذنوب دهليز(١) الشرك والكفر ومنازعة الله ربوبيته.(٢)

السبب الثاني: الإجرام

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ * ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ الْآَخِرِينَ * كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ * وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ [المرسلات:١٦-١٩].

قال العلامة السعدي رحمه الله:

أي: أما أهلكنا المكذبين السابقين ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين، وهذه سنته السابقة واللاحقة في كل مجرم لابد من عذابه فلم لا تعتبرون بما ترون وتسمعون.(٣)

وقال تعالى: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [الدخان:٣٧].

وقال تعالى عن عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ * تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥].

---

(١) دهليز: قال في "لسان العرب" دهليز بالكسر ما بين الباب والدار، فارسي معرب. اهـ
قلت: ومعناه هنا أن الذنوب باب يوصل إلى الشرك والكفر والعياذ بالله.

(٢) "الداء والدواء" (١٩٠-١٩٢).

(٣) "تفسير السعدي" (٩٠٤).

وقال تعالى: ﴿سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٤] صغار أي: إهانة وذل.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:١٣].

السبب الثالث: الإعجاب بالنفس(١)

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم».(٢)

قال النووي رحمه الله: والرواية المشهورة: «أَهْلَكُهُمْ» برفع الكاف، وروي بنصبها، وذلك النهي لمن قال ذلك عجْبًا بنفسه وتصاغرًا للناس، وارتفاعًا عليهم فهذا هو الحرام وأما من قاله لما يرى في الناس من نقص في أمر دينهم، وقاله تحزنًا عليهم وعلى الدين فلا بأس(٣) به، هكذا فسره العلماء وفصلوه وممن قاله من الأئمة الأعلام مالك بن أنس والخطابي والحميدي وآخرون، وقد أوضحته في "كتاب الأذكار".(٤)

---

(١) قال القرطبي: إعجاب المرء بنفسه هو ملاحظته لها بعين الكمال مع نسيان نعمة الله، فإن احتقر غيره مع ذلك فهو الكبر المذموم.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢٣).

(٣) ومن ذلك قول ذلك الرجل الصالح الذي كان عنده سلمان الفارسي رضي الله عنه بعدما قال له سلمان: يا فلان، إني كنت معك وأحببتك حبًّا لم أحبه من قبلك، وقد حضرك ما ترى من أمر الله، فإلى من توصي بي، وما تأمرني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحدًا اليوم على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا، تركوا أكثر ما كانوا عليه، إلا رجلًا بالموصل... إلخ. رواه أحمد (٥/٤٤١) بإسناد حسن، وهو في "الصحيح المسند" (٤٤٠) لشيخنا العلامة الوادعي رحمة الله عليه.

(٤) "رياض الصالحين" شرح حديث رقم (١٥٩٨).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «بينما رجل(١) يمشي في حلة(٢) تعجبه نفسه مرجل جمته(٣) إذا خسف الله به فهو يتجلجل(٤) إلى يوم القيامة».(٥)

(١) قيل: يحتمل أن هذا الرجل من هذه الأمة فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه سيقع هذا وقيل بل هو إخبار عمن قبل هذه الأمة وهذا هو الصحيح، وهو معنى إدخال البخاري له في باب ذكر بني إسرائيل. والله أعلم قاله النووي في "شرح مسلم" (٢٩٠/١٤).

(٢) «الحلة»: ثوبان أحدهما فوق الآخر، وقيل إزار ورداء، وهو الأشهر. قاله الحافظ في "الفتح" (٣٢١/١٠).

(٣) «الجمة»: مجتمع الشعر إذا تدلى من الرأس إلى المنكبين وإلى أكثر من ذلك، وأما الذي لا يتجاوز الأذنين فهو الوفرة وترجيل الشعر تسريحه ودهنه قاله الحافظ.

(٤) «يتجلجل في الأرض» أي: ينزل فيها مضطربًا متدافعًا.

(٤) رواه البخاري (٥٧٨٩)، ومسلم (٢٠٨٨).

(٥)"متواخيين"قال في عون المعبود(١٦٦/١٣)أي:متقابلين في القصد والسعي فهذا كان قاصداًوساعياًفي الخير وهذا كان قاصداً وساعياً في الشر .

(٦)"أقصر" من الإقصار وهو الكف عن الشيء مع القدرة عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين،١ فكان أحدهما يذنب والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر(٦). فقال: خلني وربي أبعثت عليَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك الله الجنة.

فقبض أرواحهما فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي. وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار.

قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده لتكلم بكلمة أوبقت ٢ دنياه وآخرته. (٣)

وعن صهيب رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرك شفتيه أيام حنين بشيء لم يكن يفعله قبل ذلك، قال: فقال النبي صلى الله عليه وسلم : «إن نبيًا كان فيمن كان قبلكم أعجبته أمته، فقال: لن يروم هؤلاء شيء،٤ فأوحى الله إليه، أن خيرهم بين إحدى ثلاث: إما أن أسلط عليهم عدوًّا من غيرهم فيستبيحهم، أو الجوع، أو الموت.

١أي:أهلكت.

٢ رواه أبو داود (٤٩٠٠) بإسناد حسن وهو في "الجامع الصحيح" (١٥٦) لشيخنا العلامة الوادعي رحمه الله.

٣ أي:لن يقصد هؤلاء عدو لكثرتهم وقوتهم.

قال: فقالوا: أما القتل أو الجوع، فلا طاقة لنا به، ولكن الموت. قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «فمات في ثلاث[١] سبعون ألفًا» قال: فقال: «فأنا أقول الآن: اللهم بك أحاول،[٢] وبك أصول،[٣] وبك أقاتل».[٤]

هذا الحديث والذي قبله ذكرهما شيخنا العلامة الوادعي رحمه الله في" جامعه" في باب ضرر العجب على العالم والمتعلم.

---

١ أي:ليالٍ.

٢ "أحاول":أي أحتال لدفع العدو.

٣ "أصول":أي أتغلب على الأعداء.

٤ رواه أحمد (٤/٣٣٢) بإسناد صحيح، وهو في "الجامع الصحيح" (١٥٧).

السبب الرابع: الكبر(١)

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ * فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [فصلت:١٥-١٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في "تفسيره":

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ أي: بغوا وعتوا وعصوا: ﴿وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ أي: منوا بشدة تركيبهم وقواهم، واعتقدوا أنهم يمتنعون به من بأس الله! ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي: أفما يتفكرون فيمن يبارزون بالعداوة؟

فإنه العظيم الذي خلق الأشياء وركب فيها قواها الحاملة لها، وإن بطشه شديد، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ(٢) وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧]، فبارزوا

---

(١) الكبر فسره رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: «الكبر بطر الحق وغمط الناس» رواه مسلم عن ابن مسعود ومعنى: «بطر الحق» أي: دفعه ورده، «وغمط الناس» أي: احتقارهم وازدراؤهم.

(٢) "بأيد":أي بقوة.

الجبار بالعداوة، وجحدوا بآياته وعصوا رسوله، فلهذا قال: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ قال بعضهم: وهي الشديدة الهبوب. وقيل: الباردة. وقيل: هي التي لها صوت.

والحق أنها متصفة بجميع ذلك، فإنها كانت ريحًا شديدة قوية؛ لتكون عقوبتهم من جنس ما اغتروا به من قواهم، وكانت باردة شديدة البرد جدًّا، كقوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦]، أي: باردة شديدة، وكانت ذات صوت مزعج، ومنه سمي النهر المشهور ببلاد المشرق "صرصرا" لقوة صوت جريه.

وقوله: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ أي: متتابعات، ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة:٧]، كقوله: ﴿فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [القمر:١٩]، أي: ابتدئوا بهذا العذاب في يوم نحس عليهم، واستمر بهم هذا النحس سبع ليال وثمانية أيام حتى أبادهم عن آخرهم، واتصل بهم خزي الدنيا بعذاب الآخرة؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى﴾ أي: أشد خزيًا لهم، ﴿وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ﴾ أي: في الأخرى، كما لم ينصروا في الدنيا، وما كان لهم من الله من واق يقيهم العذاب ويدرأ عنهم النكال.انتهى

وقال تعالى مخبراًعن فرعون وجنوده(وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ)(القصص:٣٩-٤٠)

وقال تعالى :(ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآَيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (٤٥) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ)(المؤمنون:٤٥-٤٨)

وقال تعالى :(وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ)(العنكبوت:٣٩-٤٠)

وقال تعالى مخبراً عن نوح عليه السلام : (وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آَذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا (٧) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا (٨) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا (٩) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا) (١٠)

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا (١٨) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا (١٩) لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (٢٠) قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا (٢١) وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا (٢٢) وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آَلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا

وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا (٢٣) وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا (٢٤) مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصَارًا)(نوح:٧-٢٥)

السبب الخامس: البطر

قال الله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ [القصص:٥٨].

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: البطر دهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة وقلة القيام بحقها وصرفها إلى غير وجهها. اهـ(١)

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مُعَرّضًا بأهل مكة في قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي: طغت وأشَرَت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا(٢) مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ * وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [النحل: ١١٢-١١٣] ولهذا قال: ﴿فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إلا قَلِيلًا﴾ أي: دَثَرت(٣) ديارهم فلا ترى إلا مساكنهم.

---

(١) "مفردات الراغب". مادة: (بطر).

(٢)"رغداً"أي:هنيئاً داراًلا تعب فيه ولا عناء.

(٣)"دثرت" أي:اندرست قال في القاموس"الدثور"الدروس كالإندثار.

وقوله: ﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ أي: رجعت خرابًا ليس فيها أحد.

السبب السادس: اتباع الهوى

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه».(١)

قال المناوي رحمه الله: «ثلاث مهلكات»: أي موقعات لفاعلها في المهالك: «هوى متبع» بأن يتبع كل أحد ما يأمره به هواه. اهـ(٢)

السبب السابع: الإسراف وأعظمه الشرك والتكذيب

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ * ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنبياء:٧-٩].

---

(١) حديث حسن لغيره: رواه البزار (٨٠-٨١)، وأبو نعيم في "الحلية" (٢/٣٤٣)، وهو في "الصحيحة" (١٨٠٢) للعلامة الألباني رحمه الله.

(٢) "فيض القدير" (٣/٤٠٥).

قال الراغب الأصفهاني في "مفرداته": السرف: تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر.

قلت: والمقصود هنا أنهم تجاوزوا الحد بالتكذيب والكفر والشرك والعناد لرسلهم عليهم الصلاة والسلام، ولكن الآية عامة فكل من تجاوز حدود الله فهو معرض نفسه للهلاك والعياذ بالله.

السبب الثامن: التنافس في الدنيا

عن عمرو بن عوف الأنصاري وهو حليف لبني عامر بن لؤي وكان شهد بدرًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها،[1] وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم هو صالح أهل البحرين وأمر عليهم العلاء بن الحضرمي، فقدم أبو عبيدة بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافت[2] صلاة الصبح مع النبي صلى الله عليه وسلم فلما صلى بهم الفجر انصرف فتعرضوا له فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رآهم وقال: «أظنكم قد سمعتم أن أبا عبيدة قد جاء بشيء». قالوا: أجل يا رسول الله. قال: «فأبشروا وأملوا ما يسركم، فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى عليكم أن

---

١ الجزية"عبارة عن المال الذي يعقد للكتابي عليه الذمة وهي فعلة من الجزاء كأنها جزت عن قتله انظر"النهاية"مادة جزا.

٢ "فوافت":أي أتت وحضرت.

تبسط عليكم الدنيا، كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[١]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: وفيه - أي: حديث عمرو بن عوف- أن المنافسة في الدنيا قد تجر إلى هلاك الدين.

وقال أيضًا: قوله: «فتنافسوها» التنافس من المنافسة وهي الرغبة في الشيء ومحبة الانفراد به، والمغالبة عليه.

قوله: «فتهلككم» أي: لأن المال مرغوب فيه فترتاح النفس لطلبه فتمنع منه فتقع العداوة المقتضية للمقاتلة المفضية للهلاك، قال ابن بطال: فيه أن زهرة الدنيا ينبغي لمن فتحت عليه أن يحذر من سوء عاقبتها وشر فتنتها فلا يطمئن إلى زخرفها ولا ينافس غيره فيها ويستدل به على أن الفقر أفضل من الغنى لأن فتنة الدنيا مقرونة بالغنى والغنى مظنة الوقوع في الفتنة التي قد تجر إلى هلاك النفس غالبا والفقير آمن من ذلك.(٢)

وعن عقبة بن عامر قال صلى رسول الله صلى الله عليه و سلم على قتلى أحد ثم صعد المنبر كالمودع للأحياء

---

١ رواه البخاري(٣١٥٨)ومسلم(٢٢٩٦).

(٢) "الفتح" (١١/٢٩٥) ط دار السلام (٢٤٩٣).

والأموات فقال إني فرطكم على الحوض وإن عرضه كما بين أيلة إلى الجحفة إني لست أخشى عليكم أن تشركوا بعدي

ولكني أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها وتقتتلوا فتهلكوا كما هلك من كان قبلكم قال عقبة فكانت آخر ما رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم على المنبر[١]

السبب التاسع: عدم تغيير المنكر

عن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم على حدود الله[٢] والواقع فيها[٣] كمثل قوم

استهموا[٤] على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا».[٥]

---

١ رواه البخاري(١٣٤٤)ومسلم(٢٢٩٦)واللفظ له.

٢ معناه المنكر لها القائم في دفعها وإزالتها والمراد بالحدود ماهى الله عنه .قاله النووي

٣ أي مرتكبها .

٤ إستهموا :أي اقترعوا .

٥ رواه البخاري (٢٤٩٣).

وعن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها يومًا فزعًا(١) يقول: «لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب؛ فتح اليوم من ردم(٢)يأجوج ومأجوج مثل هذه» وحلق بأصبعيه الإبهام والتي تليها، قالت: زينب ابنة جحش: أفنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم، إذا كثر الخبث».(٣)(٤)

---

(١) فزعًا من الفزع وهو الخوف والذعر.

٢ الردم :السَّد.

(٣) «الخبث»: هو الفسوق والفجور.

(٤) رواه البخاري (٧١٣٥)، ومسلم (٢٨٨٠).

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: قال ابن العربي: فيه البيان بأن الخير يهلك بهلاك الشرير، إذا لم يغير عليه خبثه ، وكذلك إذا غير عليه لكن حيث لا يجدي(١) ذلك ويصر الشرير على عمله السيء؛ ويفشو ذلك ويكثر حتى يعم الفساد فيهلك حينئذ القليل والكثير، ثم يحشر كل أحد على نيته. وكأنها فهمت من فتح القدر المذكور من الردم أن الأمر إن تمادى (٢)على ذلك اتسع الخرق بحيث يخرجون، وكان عندها علم أن في خروجهم على الناس إهلاكًا عامًا لهم.وقد ورد في حالهم عند خروجهم ما أخرجه مسلم (٣)من حديث النواس بن سمعان بعد ذكر الدجال وقتله على يد عيسى قال: «ثم يأتيه قوم قد عصمهم(٤) الله من الدجال، فيمسح وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة، فبينما هم كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عبادًا لي لا يدان(٥) لأحد بقتالهم، فحرز(٦) عبادي إلى الطور، ويبعث الله يأجوج ومأجوج فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية فيشربون ما فيها، ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء، ويحصر عيسى نبي الله وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيرًا من مائة دينار، فيرغب عيسى نبي الله وأصحابه إلى الله، فيرسل

---

(١) لايجدي :لايغني.

(٢) تمادى : استمر .

(٣) برقم(٢١٣٧)

(٤) عصمهم :أي حفظهم وحماهم من فتنته.

(٥) لايدان : أي لاقدرة ولا طاقة .

(٦) فحرِّز :أي ضمَّهم واحفظهم واجعلهم في حرز أي مأمن من أن ينالهم أذى.

عليهم النغف[١] - بفتح النون والغين المعجمة ثم فاء- في رقابهم فيصبحون فرسى[٢]، بفتح الفاء وسكون الراء بعدها مهملة مقصور كموت نفس واحدة؛ ثم يهبط عيسى نبي الله وأصحابه إلى الأرض فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم[٣] ونتنهم، فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل طيرًا كأعناق البخت[٤] فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطرًا لا يكن منه مدر ولا ولا وبر[٥]، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة[٦]، ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك وردي بركتك، فيومئذ تأكل العصابة[٧] من الرمانة، ويستظلون تحتها، فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحا طيبة فتأخذهم تحت آباطهم فتقبض روح كل مؤمن ومسلم، فيبقى شرار الناس يتهارجون تهارج الحمر[٨]، فعليهم تقوم الساعة».

---

١ النغف : هو الدود .

٢ فرسى : أي قتلى.

٣ الزهم مصدر زهمت يده تزهم من رائحة اللحم والزهمة:الريح المنتنة.

٤ البخت:الإبل الطويلة الأعناق.

٥ أي:لايحمي من الإصابة بمائه بيت الطين المستحجر ولا بيت متخذ من شعر الإبل أوغيرها لكثرته وشدته.

٦ كالزلفة:بالفاء وفي رواية كالزلقة بالقاف وهما بمعنى المرآة الصافية.

٧ العصابة:الجماعة.

٨ أي:يجامع الرجال النساء علناً كما تفعل الحمر-جمع حمار-دون أن يكترثوا لذلك.

قلت: والزلفة بفتح الزاي واللام وقيل بتسكينها وقيل بالقاف هي المرآة بكسر الميم، وقيل المصنع الذي يتخذ لجمع الماء، والمراد أن الماء يعم جميع الأرض فينظفها حتى تصير بحيث يرى الرائي وجهه فيها.

وفي رواية لمسلم[١] أيضا: «فيقولون: لقد قتلنا من في الأرض، هلم فلنقتل من في السماء، فيرمون بنشابهم[٢] إلى السماء فيردها الله عليهم مخضوبة دمًا».

ومن حديث أبي سعيد[٣] رفعه: «يفتح يأجوج ومأجوج فيعمون الأرض، وتنحاز منهم المسلمون فيظهرون على أهل الأرض؛ فيقول قائلهم: هؤلاء أهل الأرض قد فرغنا منهم فيهز آخر حربته إلى السماء فترجع مخضبة بالدم، فيقولون: قد قتلنا أهل السماء، فبينما هم كذلك إذ بعث الله عليهم دواب كنغف الجراد فتأخذ بأعناقهم فيموتون موت الجراد يركب بعضهم بعضًا».[٤]

وعن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: «يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية وتضعونها على غير مواضعها: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] وإنا سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم[٥]

---

١ برقم(٢١٣٧/١١١)

٢ بنشابهم: بنبلهم.

٣ سبق تخريجه والكلام عليه في باب "هلاك يأجوج ومأجوج.

٤ "الفتح" (١٣/١٣٦).

٥ أي: علموا ظلمه وفسقه وعصيانه.

فلم يأخذوا على يديه(١) أوشك(٢) أن يعمهم الله بعقاب».

وفي رواية: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي ثم يقدرون على أن يغيروا ثم لا يغيروا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب»(٣).

قال صاحب "تحفة الأحوذي" (٦/ ٣٨٩): قال أبو عبيدة: خاف الصديق أن يتأول الناس الآية غير تأويلها، فيدعوهم إلى ترك الأمر بالمعروف فأعلمهم أنها ليست كذلك، وأن الذي أذن في الإمساك عن تغييره عن المنكر هو الشرك الذي ينطق به المعاهدون من أجل أنهم يتدينون به، وقد صولحوا عليه، فأما الفسوق والعصيان والريب من أهل الإسلام فلا يدخل فيه.

وقال النووي: وأما قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] الآية فليست مخالفة لوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن المذهب الصحيح عند المحققين في معنى الآية أنكم إذا فعلتم ما كلفتم به فلا يضركم تقصير غيركم مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ فإذا كان كذلك فمما كلف به الأمر بالمعروف إذا فعله ولم يمتثل المخاطب فلا عتب بعد ذلك عليه؛ لكونه أدى ما عليه. اهـ

(١) أي: لم يكفوه عن الظلم بقول أو فعل.

(٢) «أوشك» أي: قارب أو أسرع.

(٣) إما في الدنيا أو الآخرة أو فيهما لتضييع فرض الله بلا عذر. اهـ من "تحفة الأحوذي" (٣٨٩/٦).

السبب العاشر: ترك الجهاد في سبيل الله

عن أسلم أبى عمران التجيبى قال كنا بمدينة الروم فأخرجوا إلينا صفا عظيما من الروم فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى الجماعة فضالة بن عبيد فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم فصاح الناس وقالوا سبحان الله يلقى بيديه إلى التهلكة فقام أبو أيوب الأنصارى فقال يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أعز الله الإسلام وكثر ناصروه فقال بعضنا لبعض سراً دون رسول الله –صلى الله عليه وسلم– إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه فلو أقمنا فى أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله على نبيه –صلى الله عليه وسلم– يرد علينا ما قلنا (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركنا الغزو فما زال أبو أيوب شاخصا فى سبيل الله حتى دفن بأرض الروم[1]

---

١ رواه أبو داود(٢٥١٢) والترمذي(٢٩٧٢)بإسناد صحيح وهو في الصحيح المسند(٣١٥)لشيخنا العلامة الوادعيِّ رحمه الله.
قوله(شاخصاً)أي:خارجاًمسافراًغازياًفي سبيل الله.

السبب العاشر: الفتن

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر فنزلنا منزلًا فمنا من يصلح خباءه ومنا من ينتضل(١)، ومنا من هو في جشره(٢)، إذ نادى منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم : الصلاة جامعة،

فاجتمعنا: إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إنه لم يكن نبيٌّ قبلي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم، وينذرهم شر ما يعلمه لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضًا، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف، وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إمامًا فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر».

فدنوت منه فقلت: أنشدك الله، أأنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فأهوى إلى أذنيه وقلبه بيديه، وقال: سمعته أذناي، ووعاه قلبي. فقلت له: هذا ابن عمك معاوية يأمرنا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل، ونقتل أنفسنا، والله

(١) «ومنا من ينتضل» هو من المناضلة وهي المراماة بالنشاب.

(٢) قوله: ومنا من هو في جشره. هو بفتح الجيم والشين وهي الدواب التي ترعى وتبيت مكانها.

يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء:٢٩] قال: فسكت ساعة ثم قال: أطعه في طاعة الله، واعصه في معصية الله».(١)

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تدور رحى الإسلام لخمس وثلاثين أو ست وثلاثين أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يقم لهم دينهم يقم لهم سبعين عامًا» قال: قلت: أمما بقي أو مما مضى؟ قال: «مما مضى»(٢).

قال العلامة الألباني رحمه الله معلقًا على هذا الحديث:

فائدة:

قال الخطيب رحمه الله: «تدور رحى الإسلام» مثل يريد أن هذه المدة إذا انتهت حدث في الإسلام أمر عظيم يخاف لذلك على أهله الهلاك، يقال للأمر إذا تغير واستحال: قد دارت رحاه، و هذا - و الله أعلم- إشارة إلى انقضاء مدة الخلافة.

و قوله: «يقم لهم دينهم» أي: ملكهم و سلطانهم و الدين: الملك والسلطان، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ [يوسف:٧٦].

---

(١) رواه مسلم (١٨٤٤).

(٢) حديث صحيح. رواه أحمد (١/٣٩٣)، وأبو داود (٤٢٥٤)، وهو في "الصحيحة" (٩٧٦).

وكان بين مبايعة الحسن بن علي معاوية بن أبي سفيان إلى انقضاء ملك بني أمية من المشرق نحوًا من سبعين سنة.

و قال الطحاوي رحمه الله تعالى: قوله: «بعد خمس و ثلاثين، أو ست و ثلاثين...» ليس ذلك على الشكِّ و لكن يكون ذلك فيما يشاء الله عز وجل من تلك السنين، فشاء عز وجل أن كان ذلك في سنة خمس و ثلاثين، فتهيأ فيها على المسلمين حصر إمامهم و قبض يده عما يتولاه عليهم مع جلالة مقداره؛ لأنه من الخلفاء الراشدين المهديين، حتى كان ذلك سببًا لسفك دمه رضوان الله عليه، وحتى كان ذلك سببًا لوقوع اختلاف الآراء، فكان ذلك مما لو هلكوا عليه لكان سبيل من هلك لعظمه و لما حل بالإسلام منه، و لكن الله ستر و تلافى و خلف نبيه في أمته من يحفظ دينهم عليهم، و يبقى ذلك لهم.(١)

---

(١) "الصحيحة" (٢/٦٦٨-٦٦٩).

السبب الحادي عشر: اتخاذ القينات واستحلال المعازف والخمور

عن أبي عامر أو أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر(١) والحرير والخمر والمعازف(٢) ولينزل أقوام إلى جنب علم(٣) يروح عليهم(٤) بسارحة(٥) لهم يأتيهم يعني: الفقير- لحاجة فيقولوا: ارجع إلينا غدًا

فيبيتهم الله(٦)، ويضع العلم(٧) ويمسخ آخرين(٨) قردة وخنازير إلى يوم القيامة»(٩).

القيامة»(٩).

---

(١) «الحِر»: هو الفرج والمعنى يستحلون الزنا.

(٢) «المعازف»: هي آلات اللهو والطرب.

(٣) «العلم»: هو الجبل العالي وقيل رأس الجبل.

(٤) «يروح عليهم»: كذا فيه بحذف الفاعل وهو الراعي بقرينة المقام؛ إذ السارحة لابد لها من حافظ.

(٥) «السارحة»: هي الماشية التي تسرح بالغداة إلى رعيها وتروح أي ترجع بالعشي إلى مألفها.

(٦) «فيبيتهم الله» أي: يهلكهم ليلًا والبيات هجوم العدو ليلًا.

(٧) «ويضع العلم» أي: يوقعه عليهم.

(٨) يريد ممن لم يهلك في البيات المذكور أو من قوم آخرين غير هؤلاء الذين بيتوا.

(٩) حديث حسن. رواه البخاري في صحيحه تعليقًا (٥٥٩٠) ووصله ابن حبان (٦٧٥٤)

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تبيت طائفة من أمتي على أكل وشرب ولهو ولعب، ثم يصبحون قردة وخنازير ويبعث على أحياء من أحيائهم ريح فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف واتخاذهم القينات».(١)

السبب الثاني عشر: استحلال الكعبة

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل:١-٥].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: هذه من النعم التي امتن الله بها على قريش، فيما صرف عنهم من أصحاب الفيل، الذين كانوا قد عزموا على هدم الكعبة ومحو أثرها من الوجود، فأبادهم الله، وأرغم آنافهم، وخيب سعيهم، وأضل عملهم، وَرَدَّهم بشر خيبة. وكانوا قومًا نصارى، وكان دينهم إذ ذاك أقرب حالًا مما كان عليه قريش من عبادة الأوثان. ولكن كان هذا من باب الإرهاص[٢] والتوطئة[١] لمبعث رسول الله

وغيره وهو في "الصحيحة" (٩١).

(١) حديث حسن لغيره، رواه أحمد (٥/٢٥٩) وغيره وهو في "الصحيحة" (١٦٠٤). والقينات: المغنيات.

٢ الإرهاص:هو الأمرالخارق للعادة يظهر للنبي قبل بعثته انظر"المعجم الوسيط" مادة رهص.

صلى الله عليه وسلم ، فإنه في ذلك العام ولد على أشهر الأقوال، ولسان حال القدر يقول: لم ننصركم -يا معشر قريش-على الحبشة لخيريتكم عليهم، ولكن صيانة للبيت العتيق[٢] الذي سنشرفه ونعظمه ونوقره ببعثة النبي الأمي[٣] محمد، صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء.

وهذه قصة أصحاب الفيل على وجه الإيجاز والاختصار والتقريب، قد تقدم في قصة أصحاب الأخدود أن ذا نُوَاس -وكان آخر ملوك حمير، وكان مشركًا- هو الذي قتل أصحاب الأخدود، وكانوا نصارى، وكانوا قريبًا من عشرين ألفًا، فلم يفلت منهم إلا دَوس ذو ثعلبان، فذهب فاستغاث بقيصر ملك الشام -وكان نصرانيًا-فكتب له إلى النجاشي ملك الحبشة؛ لكونه أقرب إليهم، فبعث معه

---

١ التوطئة:التمهيدوالتسهيل.

٢ البيت العتيق:الكعبة شرفها الله ولماذا وصف بكونه عتيقاً؟

قال في" القاموس" قيل لأنه أول بيت وضع في الأرض أوأعتق من الغرق أو من الجبابرة أو من الحبشة أولأنه حر لم يملكه أحد

قلت:والأقرب-والله أعلم- القول الأول ويؤيده أن العتيق هو القديم من كل شيء ولا شك أن البيت الحرام أقدم المساجد وأولها على الإطلاق قال الله تعالى(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ)وفي"صحيح البخاري"(٣٣٦٦)ومسلم(٥٢٠) عن أبي ذر قال قلت يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أول ؟ قال المسجد الحرام قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى قلت كم بينهما ؟ قال أربعون سنة)

٣ الأمي:هو الذي لا يكتب ولا يقرأ المكتوب

أميرين: أرياط وأبرهة بن الصباح أبا يكسوم في جيش كثيف[١]، فدخلوا اليمن فجاسوا[٢] خلال الديار، واستلبوا[٣] الملك من حمير،

وهلك ذو نواس غريقًا في البحر. واستقل الحبشة بملك اليمن وعليهم هذان الأميران: أرياط وأبرهة، فاختلفا في أمرهما وتصاولا وتقاتلًا وتصافا، فقال أحدهما للآخر: إنه لا حاجة بنا إلى اصطدام الجيشين بيننا، ولكن أبرز إليَّ وأبرز إليك، فأينا قتل الآخر، استقل بعده بالملك. فأجابه إلى ذلك فتبارزا، وخَلْفَ كل واحد منهما قناة[٤]، فحمل أرياط على أبرهة فضربه بالسيف، فشرم أنفه[٥] وفمه وشق وجهه، وحمل عَتَوْدَة مولى أبرهة على أرياط فقتله،

ورجع أبرهة جريحًا، فداوى جرحه فَبَرَأ، واستقل بتدبير جيش الحبشة باليمن. فكتب إليه النجاشي يلومه على ما كان منه، ويتوعده ويحلف ليطأن بلاده ويجزن ناصيته. فأرسل إليه أبرهة يترقق له ويصانعه، وبعث مع رسوله بهدايا وتحف[٦]، وبجراب[٧] فيها من تراب اليمن، وجز ناصيته[١] فأرسلها معه، ويقول في كتابه:

---

١ كثيف:أي كثير

٢ أي سلكوا خلال بيوتهم أي:بينهم ووسطها وانصرفوا ذاهبين وجائين لا يخافون أحداً

٣ واستلبوا:أي اختلسوا و أخذوا

٤ قناة:أي رمح

٥ الشرم:قطع الأرنبةأي أرنبة الأنف وهي أعلاها

٦ التحف:طُرَف الفواكه

٧ الجراب:وعاء يوعى فيه وهو من جلد الشاء وجمعه جرب انظر"العين"مادة جرب

ليطأ[٢] الملك على هذا الجراب فيبر قسمه، وهذه ناصيتي قد بعثت بها إليك. فلما وصل ذلك إليه أعجبه منه، ورضي عنه، وأقره على عمله،

وأرسل أبرهة يقول للنجاشي: إني سأبني لك كنيسة بأرض اليمن لم يُبْنَ قبلها مثلها. فشرع في بناء كنيسة هائلة بصنعاء، رفيعة البناء، عالية الفناء، مزخرفة الأرجاء. سمتها العرب القُلَّيس؛ لارتفاعها؛ لأن الناظر إليها تكاد تسقط قلنسوته[٣] عن رأسه من ارتفاع بنائها.

وعزم أبرهة الأشرمُ على أن يصرف حَجّ العرب إليها كما يُحج إلى الكعبة بمكة، ونادى بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك، وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا، حتى قصدها بعضهم، وتوصل إلى أن دخلها ليلًا. فأحدث[٤] فيها وكرّ راجعًا. فلما رأى السدنة[٥] ذلك الحدث، رفعوا أمرهم إلى ملكهم أبرهة، وقالوا له: إنما صنع هذا بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت[٦] هذا به،

---

١ أي:شعر مقدم رأسه

٢ الوطء:بالقدم والقوائم

٣ القلنسوة:لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال جمعه قلانس وقلانيس

٤ أي:تغوط

٥ السدنة:هم الحجاب والخدم

٦ المضاهاة:مشاكلة الشيء الشيء ومنه قوله تعالى(يضاهئون قول الذين كفروا)

فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكة، وليخربنه حجرًا حجرًا. فتأهب أبرهة لذلك، وصار في جيش كثيف عَرَمرم؛[١] لئلا يصده أحد عنه،

واستصحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله، يقال له: محمود، وكان قد بعثه إليه النجاشي ملك الحبشة لذلك. ويقال: كان معه أيضًا ثمانية أفيال. وقيل: اثنا عشر فيلًا. وقيل غيره، والله أعلم. يعني: ليهدم به الكعبة، بأن يجعل السلاسل في الأركان، وتوضع في عُنُق الفيل، ثم يزجر ليلقي الحائط جملة واحدة،

فلما سمعت العرب بمسيره أعظموا[٢] ذلك جدًّا، ورأوا أن حقًا عليهم المحاجبة[٣] دون البيت، وَرَد من أراده بكيد. فخرج إليه رجل من أشراف أهل اليمن وملوكهم، يقال له (ذو نَفْر) فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة، وجهاده عن بيت الله، وما يريد من هدمه وخرابه. فأجابوه وقاتلوا أبرهة، فهزمهم لما يريده الله، عزوجل، من كرامة البيت وتعظيمه، وأسر (ذو نُفْر) فاستصحبه معه،

ثم مضى لوجهه حتى إذا كان بأرض خثعم، اعترض له نُفَيل بن حَبيب الخَثعمي في قومه: شهران وناهس، فقاتلوه، فهزمهم أبرهة، وأسر نُفَيل بن حبيب، فأراد قتله ثم عفا عنه، واستصحبه معه ليدله في بلاد الحجاز. فلما اقترب من أرض الطائف،

---

١ أي: جيش كثير

٢ أي: رأوه عظيماً ومستنكراً

٣ أي: الممانعة والمقاتلة

خرج إليه أهلها ثقيف وصانعوه خيفة على بيتهم، الذي عندهم، الذي يسمونه اللات. فأكرمهم وبعثوا معه (أبا رغَال) دليلًا،

فلما انتهى أبرهة إلى المُغَمس -وهو قريب من مكة- نزل به وأغار[١] جيشه على سَرْح[٢] أهل مكة من الإبل وغيرها، فأخذوه. وكان في السرح مائتا بعير لعبد المطلب. وكان الذي أغار على السرح بأمر أبرهة أمير المقدمة، وكان يقال له: (الأسود بن مفصود) فهجاه بعض العرب -فيما ذكره ابن إسحاق-

وبعث أبرهة حناطة الحميري إلى مكة، وأمره أن يأتيه بأشرف قريش، وأن يخبره أن الملك لم يجئ لقتالكم إلا أن تَصُدوه عن البيت. فجاء حناطة فَدُل على عبد المطلب بن هاشم وبلغه عن أبرهة ما قال، فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وإن يخلي بينه وبينه، فوالله ما عندنا دَفْع عنه،

فقال له حناطة: فاذهب معي إليه. فذهب معه، فلما رآه أبرهة أجله، وكان عبد المطلب رجلًا جسيماً حسن المنظر، ونزل أبرهة عن سريره، وجلس معه على البساط، وقال لترجمانه: قل له: ما حاجتك؟ فقال للترجمان: إن حاجتي أن يرد عليَّ الملك مائتي بعير أصابها لي. فقال أبرهة لترجمانه: قل له: لقد كنت أعجبتني حين رأيتك، ثم قد زَهِدت فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبتها لك، وتترك

---

١ أي:هجم

٢ السرح:هي الماشية ولا يسمى سرحاً إلا ما يغدى به ويراح

بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه؟! فقال له عبد المطلب: إني أنا رب[١] الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنع مني! قال: أنت وذاك.

١ أي:صاحب الإبل

ويقال: إنه ذهب مع عبد المطلب جماعة من أشراف العرب فعرضوا على أبرهة ثلث أموال تهامة على أن يرجع عن البيت، فأبى عليهم، ورد أبرهة على عبد المطلب إبله، ورجع عبد المطلب إلى قريش فأمرهم بالخروج من مكة، والتحصن في رءوس الجبال، تخوفًا عليهم من معرة الجيش.

ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة، وقام معه نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده،

وقال عبد المطلب وهو آخذ بحلقة باب الكعبة:

لاهمَّ إنَّ المرء يمـ نَعُ رَحْلَه فامْنع رحالَك
لا يغلبنَّ صَلِيبُهم ومحَالُهم أبداً محَالك

قال ابن إسحاق: ثم أرسل عبد المطلب حَلْقة الباب، ثم خرجوا إلى رءوس الجبال.

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله –وكان اسمه محمودًا– وعبأ جيشه، فلما وجهوا الفيل نحو مكة أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنبه ثم أخذ بأذنه وقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث جئت؛ فإنك في بلد الله الحرام.

ثم أرسل أذنه، فبرك الفيل. وخرج نفيل بن حبيب يَشتد حتى أصعد في الجبل. وضربوا الفيل ليقوم فأبى. فضربوا في رأسه بالطْبرزين[١] وأدخلوا محاجن[٢] لهم في مَرَاقه[٣] فبزغوه بها ليقوم، فأبى؛ فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول. ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك. ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك. وأرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف[٤] والبلسان.[٥]

مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره، وحجران في رجليه، أمثال الحمص والعدس،[٦] لا تصيب منهم أحدًا إلا هلك، وليس كلهم أصابت. وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق، ويسألون عن نفيل ليدلهم على الطريق هذا. ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز، ينظرون ماذا أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة، وجعل نفيل يقول:

أينَ المَفَرُّ؟ والإلهُ الطَّالب والأشرمُ المغلوبُ غير الغالب

قال ابن إسحاق: وقال نُفَيل في ذلك أيضًا:

---

١ نوع من السلاح يشبه الفأس

٢ محاجن: جمع محجن وهي عصا معوجة الرأس

٣ مراقه: أي أرفاغه والرفغ كل موضع يجتمع فيه الوسخ من البدن

٤ الخطاطيف: جمع خطاف وهو نوع من الطيور القواطع عريض المنقار دقيق الجناح طويله منتفش الذيل

٥ البلسان: شجر له زهر أبيض صغير كهيئة العناقيد

٦ الحمص والعدس: نوعان من أنواع الحبوب

ألا حُييت عَنا يا رُدَينا نَعمْنا كُم مَعَ الأصبَاح عَينَا

رُدَينةُ لو رأيت ولا ترَيْه لَدَى جَنْب المحصّب ما رَأينَا

إذا لَعَذَرتني وَحَمدت أمْري وَلَم تأس عَلَى مَا فات بَيْنَا

حَمِدتُ الله إذ أبصَرتُ طيرًا وَخفْتُ حَجارة تُلقَى عَلَينا

فكُلّ القوم يَسأَلُ عَن نُفَيل كَأنَّ عليَّ للحُبْشَان دَينَا!

قال ابن إسحاق: فلما بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم كان فيما يَعُد به على قريش من نعْمتِه عليهم وفضله، ما رَدَّ عنهم من أمر الحبشة، لبقاء أمرهم ومدتهم، فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ ﴿لإيلافِ قُرَيْشٍ إِيلافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾أي: لئلا يغير شيئًا من حالهم التي كانوا عليها، لما أراد الله بهم من الخير لو قبلوه.

قال ابن هشام: الأبابيل الجماعات، ولم تتكلم العرب بواحدة. قال: وأما السجيل، فأخبرني يونس النحوي وأبو عبيدة أنه عند العرب: الشديد الصلب. قال: وذكر بعض المفسرين أنهما كلمتان بالفارسية، جعلتهما العرب كلمة واحدة، وإنما هو سنج وجل يعني بالسنج: الحجر، والجل: الطين. يقول: الحجارة من هذين الجنسين: الحجر والطين. قال: والعصفُ: ورقُ الزرع الذي لم يُقضب،[١] واحدته عصفه. انتهى ما ذكره.

وقد قال حماد بن سلمة: عن عاصم، عن زر، عن عبد الله -وأبو سلمة بن عبد الرحمن-: ﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفرق.

وقال ابن عباس، والضحاك: أبابيل يتبع بعضها بعضًا. وقال الحسن البصري، وقتادة: الأبابيل: الكثيرة. وقال مجاهد: أبابيل: شتى متتابعة مجتمعة. وقال ابن زيد: الأبابيل: المختلفة، تأتي من هاهنا، ومن هاهنا، أتتهم من كل مكان.

وقال الكسائي: قد سمعت بعض النحويين يقول: واحد الأبابيل: إبيل.

وقوله: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ قال سعيد بن جبير: يعني: التبن الذي تسميه العامة: هبور. وفي رواية عن سعيد: ورق الحنطة. وعنه أيضًا: العصف: التبن. والمأكول: القصيل يجز للدواب. وكذلك قال الحسن البصري.

---

١ أي: يقطع

وعن ابن عباس: العصف: القشرة التي على الحبة، كالغلاف على الحنطة.

وقال ابن زيد: العصف: ورق الزرع، وورق البقل، إذا أكلته البهائم فراثته، فصار درينا.

والمعنى: أن الله، سبحانه وتعالى، أهلكهم ودمرهم، وردهم بكيدهم وغيظهم لم ينالوا خيرًا، وأهلك عامتهم، ولم يرجع منهم مخبر إلا وهو جريح، كما جرى لملكهم أبرهة، فإنه انصدع(١) صدره عن قلبه حين وصل إلى بلده صنعاء، وأخبرهم بما جرى لهم، ثم مات. فملك بعده ابنه يكسوم، ثم من بعده أخوه مسروق بن أبرهة ثم خرج سيف بن ذي يَزَن الحميري إلى كسرى فاستغاثه على الحبشة، فأنفذ معه من جيوشه فقاتلوا معه، فرد الله إليهم ملكهم، وما كان في آبائهم من الملك، وجاءته وفود العرب للتهنئة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: عبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه فقلنا: يا رسول الله، صنعت شيئا في منامك لم تكن تفعله؟ فقال: «العجب، إن ناسًا من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم» فقلنا يا رسول الله: إن الطريق قد يجمع الناس؟ قال: «نعم، فيهم المستبصر، والمجبور، وابن السبيل، يهلكون مهلكًا واحدًا، ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم».(٢)

---

(١)أي:انشق

(٢) رواه مسلم (٢٨٨٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يبايع لرجل بين الركن والمقام ولن يستحل البيت إلا أهله فإذا استحلوه فلا تسأل عن هلكة العرب ثم تجيء الحبشة فيخربونه خرابًا لا يعمر بعده أبدًا هم الذين يستخرجون كنزه».(١)

وعن سعيد بن عمرو قال: أتى عبد الله بن عمرو ابن الزبير وهو جالس في الحجر فقال: يا ابن الزبير، إياك والإلحاد في حرم الله، فإني أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يحلها يحل به رجل من قريش لو وزنت ذنوبه بذنوب الثقلين لوزنتها».(٢)

السبب الثالث عشر: وصل الشعر

عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف، أنه سمع معاوية بن أبي سفيان عام حج وهو على المنبر وتناول قصة من شعر(٣) كانت بيد حرسي(١) أين علماؤكم؟ سمعت رسول

قوله(عبث رسول الله صلى الله عليه وسلم في منامه): قيل معناه اضطرب بجسمه، وقيل: حرك أطرافه كمن يأخذ شيئًا أو يدفعه قوله: «يؤمون» أي: يقصدون. قوله: «فيهم المستبصر» أي: المستبين لذلك القاصد له عمداً. قوله: «والمجبور» هو المكره. قوله: «ابن السبيل» المراد به سالك الطريق معهم وليس منهم.قوله:"ويهلكون مهلكاً واحداً"أي:يقع الهلاك في الدنيا على جميعهم قوله: «ويصدرون» مصادر شتى أي: يبعثون مختلفين على قدر نياقمم فيجازون بحسبها.

(١) حديث صحيح. رواه أحمد(٨٣٣٣) وابن أبي شيبة (٥٢/١٥)، وهو في "الصحيح المسند" (١٣٣١) لشيخنا الوادعي رحمه الله.

(٢) حديث صحيح. رواه أحمد (٧٠٤٣)، وهو في "الصحيح المسند" (٧٩٩).

(٣) «قصة من شعر»: قال الأصمعي وغيره، هي شعر مقدم الرأس المقبل على الجبهة وقيل

الله صلى الله عليه وسلم ينهى عن مثل هذه ويقول: «إنما هلكت بنو إسرائيل حين اتخذ هذه نساؤهم».[٢]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله: فيه إشعار بأن ذلك كان حرامًا عليهم فلما فعلوه كان سببًا لهلاكهم مع ما انضم إلى ذلك من ارتكابهم ما ارتكبوه من المناهي.(٣)

السبب الرابع عشر: الإستكثار من المال مع عدم إخراج الحق فيه

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في نخل المدينة، فقال: «يا أبا هريرة، أو يا أبا هر؛ هلك المكثرون، إن المكثرين الأقلون يوم القيامة، إلا من قال بالمال هكذا وهكذا، وقليل ما هم يا أبا هريرة، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ من الله إلا إليه، يا أبا هريرة، هل تدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟» قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «فإن حق الله على العباد، أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا، وإن حق العباد على الله أن لا يعذب من فعل ذلك منهم».(٤)

شعر الناصية قاله النووي.

(١) «الحرسي». هو غلام الأمير.

٢ رواه البخاري(٣٤٦٨)ومسلم(٢١٢٧)

(٣) "الفتح" (٦/٦٣١).

(٤) صحيح. رواه أحمد (٨٠٧١)، وهو في "الصحيح المسند" (١٣٥١) للعلامة الوادعي رحمه الله.

السبب الخامس عشر: الشُّح(١)

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا الظلم؛ فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم؛ حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم».(٢)

قل القاضي عياض رحمه الله: يحتمل أن هذا هو الهلاك الذي أخبر عنهم في الدنيا ويحتمل أنه أراد هلاك الآخرة(٣).

قال النووي: وهذا الثاني أظهر ويحتمل أنه أهلكهم في الدنيا والآخرة.(٤)

قلت: وهذا الثالث أظهر والله أعلم.

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «إياكم والشح؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالشح؛ أمرهم بالبخل فبخلوا وأمرهم بالقطيعة فقطعوا وأمرهم بالفجور(٥)

---

(١)الشح:هو أشد البخل وأبلغ في المنع من البخل وقيل هو البخل مع الحرص وقيل:الشح الحرص على ما ليس عنده والبخل بما عنده.

(٢) رواه مسلم (٢٥٧٨).

(٣) "إكمال المعلم بفوائد مسلم" (٨/٤٨).

(٤) شرح النووي على مسلم (١٦/٣٥٠).

(٥) «الفجور» قال الخطابي: والفجور هاهنا الكذب وأصل الفجور الميل والانحراف عن الصدق ويقال للكاذب فاجر وقد فجر أي: انحرف عن الصدق». انظر "عون المعبود" (٥/١١٥-١١٦).

ففجروا». [١]

السبب السادس عشر: الحيل المحرمة[٢]

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ * فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:٦٥-٦٦].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ يا معشر اليهود، ما حل من البأس بأهل القرية التي عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت، والقيام بأمره، إذ كان مشروعًا لهم، فتحيلوا على اصطياد الحيتان في يوم السبت، بما وضعوا لها من الشصوص[٣] والحبائل[٤] والبرك[٥] قبل يوم السبت،

---

١ حديث صحيح. رواه أحمد (١٥٩/٢) مطولًا، وأبو داود (١٦٩٨)، وهذا لفظه وهو في "الصحيح المسند" (٧٩٥) لشيخنا الوادعي رحمه الله.

٢ إذا أردت التوسع في باب الحيل وبيان أنواعها والرد على شبه القائلين بجوازها فراجع كلاماً طيباًجداً للعلامة ابن القيم رحمه الله في"إغاثة اللهفان"(٤٩٨/١-١٦٢/٢)تكلم حول هذه المسألة في ثلاثمائة وخمسة وأربعين صفحة نقل كثيراً منها عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

٣ الشَّصُّ: بالكسر والفتح : حديدةٌ عقْفاءُ يُصاد بها السمَك.

٤ الحبائل :واحدها حِبالة بالكسر : وهي ما يُصادُ بها من أيّ شيء كان.

٥ "البرك"جمع بركة وهي شبه حوض يحفر في الأرض ولا يجعل له أعضاد فوق صعيد الأرض.

فلما جاءت يوم السبت على عادتها في الكثرة نشبت[١] بتلك الحبائل والحيل، فلم تخلص منها يومها ذلك، فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت. فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة، وهي أشبه شيء بالأناسي[٢] في الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة. فكذلك أعمال هؤلاء وحيلهم لما كانت مشابهة للحق في الظاهر ومخالفة له في الباطن، كان جزاؤهم من جنس عملهم. وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ[٣] إِذْ يَعْدُونَ[٤] فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا[٥] وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُون)

وقوله تعالى: ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا﴾ أي: فجعل الله هذه القرية، والمراد أهلها بسبب اعتدائهم في سبتهم ﴿نَكَالا﴾ أي: عاقبناهم عقوبة، فجعلناها. عبرة، كما قال الله عن فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأولَى﴾[النازعات: ٢٥]. وقوله: ﴿لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أي: من القرى. قال ابن عباس: يعني: جعلناها بما أحللنا بها من

الأرض.

١ نشبت:أي علقت.

٢ "الأناسي" جمع إنسان.

٣ أي:مجاورة البحر

٤ أي:يتجاوزون حد الله فيه

٥ أي:ظاهرة على الماء

العقوبة عبرة لما حولها من القرى. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٧] .

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ المراد بالموعظة هاهنا الزاجر أي: جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال في مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله، وما تحيلوا به من الحيل، فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم.

كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة(١):

حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم، حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني، حدثنا يزيد بن هارون، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ترتكبوا ما ارتكب اليهود، فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل»(٢).

وهذا إسناد جيد(٣)، وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي، وباقي رجاله مشهورون على شرط الصحيح. والله أعلم.

وقال تعالى:(وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ)[الأعراف:١٦٣-١٦٦]

---

(١)في جزء"الخلع وإبطال الحيل"(ص:٢٤).

(٢)حسن:لأن محمد بن عمرو حسن الحديث وبقية رجاله ثقات وهذا الحديث قد حسنه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في"مجموع الفتاوى"(٢٩/٢٩) وكذلك تلميذه ابن القيم رحمه الله في"تهذيب السنن"(٥/١٠٣).

(٣)وقد أقره على هذا الحكم شيخنا العلامة الوادعيُّ رحمه الله في تخريجه تفسيرَ ابن كثير رحمه الله(٢٠٢/١)

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

﴿وَاسْأَلْهُمْ﴾ أي: اسأل بني إسرائيل ﴿عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ أي: على ساحله في حال تعديهم وعقاب الله إياهم.

﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ﴾ وكان الله تعالى قد أمرهم أن يعظموه ويحترموه ولا يصيدوا فيه صيدًا، فابتلاهم الله وامتحنهم، فكانت الحيتان تأتيهم ﴿يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا﴾ أي: كثيرة طافية(١) على وجه البحر.

﴿وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ﴾ أي: إذا ذهب يوم السبت ﴿لا تَأْتِيهِمْ﴾ أي: تذهب في البحر فلا يرون منها شيئًا ﴿كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ ففسقهم هو الذي أوجب أن يبتليهم الله، وأن تكون لهم هذه المحنة، وإلا فلو لم يفسقوا، لعافاهم الله، ولما عرضهم للبلاء والشر، فتحيلوا على الصيد، فكانوا يحفرون لها حفرًا، وينصبون لها الشباك(٢)، فإذا جاء يوم السبت ووقعت في تلك الحفر والشباك، لم يأخذوها في ذلك اليوم، فإذا جاء يوم الأحد أخذوها، وكثر فيهم ذلك، وانقسموا ثلاث فرق:

١ - معظمهم اعتدوا وتجرؤوا، وأعلنوا بذلك.

٢ - وفرقة أعلنت بنهيهم والإنكار عليهم.

٣ - وفرقة اكتفت بإنكار أولئك عليهم، ونهيهم لهم، وقالوا لهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ كأنهم يقولون: لا فائدة في وعظ من اقتحم

---

(١) أي: عالية.

(٢) "الشباك" جمع شَبَكَة وهي شَرَكَة الصيَّاد في البر والبحر وأكثر ما تتخذ من الخيط المشبك.

محارم الله، ولم يصغ للنصيح، بل استمر على اعتدائه وطغيانه، فإنه لا بد أن يعاقبهم الله، إما بهلاك أو عذاب شديد. فقال الواعظون: نعظهم وننهاهم ﴿مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ﴾ أي: لنعذر فيهم.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: يتركون ما هم فيه من المعصية، فلا نيأس من هدايتهم، فربما نجع[١] فيهم الوعظ، وأثر فيهم اللوم.

وهذا المقصود الأعظم من إنكار المنكر ليكون معذرة، وإقامة حجة على المأمور المنهي، ولعل الله أن يهديه، فيعمل بمقتضى ذلك الأمر، والنهي.

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ أي: تركوا ما ذكروا به، واستمروا على غيهم واعتدائهم.

﴿أَنْجَيْنَا﴾ من العذاب ﴿الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ﴾ وهكذا سنة الله في عباده، أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر.

﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ وهم الذين اعتدوا في السبت ﴿بِعَذَابٍ بَئِيسٍ﴾ أي: شديد ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾.

وأما الفرقة الأخرى التي قالت للناهين: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ﴾ فاختلف المفسرون في نجاتهم وهلاكهم، والظاهر أنهم كانوا من الناجين، لأن الله خص الهلاك بالظالمين، وهو لم يذكر أنهم ظالمون.

فدل على أن العقوبة خاصة بالمعتدين في السبت، ولأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام به البعض سقط عن الآخرين، فاكتفوا بإنكار أولئك،

---

١ أي:أثر.

ولأنهم أنكروا عليهم بقولهم: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ فأبدوا من غضبهم عليهم، ما يقتضي أنهم كارهون أشد الكراهة لفعلهم، وأن الله سيعاقبهم أشد العقوبة.

﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ أي: قسوا فلم يلينوا، ولا اتعظوا، ﴿قُلْنَا لَهُمْ﴾ قولًا قدريًّا: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ فانقلبوا بإذن الله قردة، وأبعدهم الله من رحمته.

السبب السابع عشر: كفران النعم وعدم شكرها

قال الله تعالى(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ)[الأعراف:٩٤-٩٥]

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى مخبرًا عما اختبر به الأمم الماضية، الذين أرسل إليهم الأنبياء بالبأساء والضراء، يعني { بالْبَأْسَاءِ } ما يصيبهم في أبدانهم من أمراض وأسقام.

{ وَالضَّرَّاءِ } ما يصيبهم من فقر وحاجة ونحو ذلك، { لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ } أي: يدعون ويخشعون ويبتهلون إلى الله تعالى في كشف ما نزل بهم.

وتقدير الكلام: أنه ابتلاهم بالشدة ليتضرعوا، فما فعلوا شيئا من الذي أراد الله منهم، فقلب الحال إلى الرخاء ليختبرهم فيه؛ ولهذا قال: { ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ

الْحَسَنَةَ } أي: حولّنا الحال من شدةلى رخاء، ومن مرض وسقم إلى صحة وعافية، ومن فقر إلى غنى، ليشكروا على ذلك، فما فعلوا.

وقوله: { حَتَّى عَفَوْا } أي: كثروا وكثرت أموالهم وأولادهم، يقال: عفا الشيء إذا كثر، { وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } يقول تعالى: ابتلاهم بهذا وهذا ليتضرعوا ويُنيبوا إلى الله، فما نَجَع فيهم لا هذا ولا هذا، ولا انتهوا بهذا ولا بهذا بل قالوا: قد مسنا من البأساء والضراء، ثم بعده من الرخاء مثل ما أصاب آباءنا في قديم الدهر، وإنما هو الدهر تارات وتارات، ولم يتفطنوا لأمر الله فيهم، ولا استشعروا ابتلاء الله لهم في الحالين. وهذا بخلاف حال المؤمنين الذين يشكرون الله على السراء، ويصبرون على الضراء، كما ثبت في الصحيحين: "عجبًا للمؤمن، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، وإن أصابته سَراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضَرَّاء صَبَر فكان خيرا له" (١) فالمؤمن من يتفطن لما ابتلاه الله به من السراء والضراء ؛ ولهذا عقب هذه الصفة بقوله: { فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ } أي: أخذناهم بالعقوبة بغتة، أي: على بغتة منهم، وعدم شعور منهم، أي: أخذناهم فجأة انتهى.

وقال تعالى:(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آَمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ وَلَقَدْ

---

(١) صحيح مسلم برقم (٢٩٩٩) من حديث صهيب بن سنان، رضي الله عنه، ولم أجده في صحيح البخاري بهذا اللفظ.

جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ)[النحل:١١٢-١١٣]

هذا مثل أريد به أهل مكة، فإنها كانت آمنة مطمئنة مستقرة يُتخطَّف الناس من حولها، ومن دخلها آمن لا يخاف، كما قال تعالى: { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا } [القصص : ٥٧]

وهكذا قال هاهنا: { يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا } أي: هنيئا سهلا { مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ } أي: جحدت آلاء الله عليها وأعظم ذلك بعثة محمد صلى الله عليه وسلم إليهم، كما قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ } [إبراهيم : ٢٨، ٢٩] . ولهذا بدَّلهم الله بحالَيْهم الأولين خلافهما، فقال: { فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ } أي: ألبسها وأذاقها الجوع بعد أن كان يُجبى إليهم ثمرات كل شيء، ويأتيها رزقها رغدًا من كل مكان،

وذلك لما استعصوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوا إلا خلافه، فدعا عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العِلْهِز - وهو: وبر البعير، يجعل بدمه إذا نحروه.

وقوله: { وَالْخَوْفِ } وذلك بأنهم بُدِّلوا بأمنهم خوفًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، حين هاجروا إلى المدينة، من سطوة سراياه وجُيوشه، وجعلوا

كل ما لهم في سَفَال ودمار، حتى فتحها الله عليهم وذلك بسبب صنيعهم وبغيهم وتكذيبهم الرسول الذي بعثه الله فيهم منهم، وامتن به عليهم في قوله: { لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ } [آل عمران : ١٦٤]، وقال تعالى: { فَاتَّقُوا اللهَ يَا أُولِي الألْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزلَ اللهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَسُولا يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللهِ مُبَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الطلاق : ١٠ ، ١١] الآية وقوله : { كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ } إلى قوله : { وَلا تَكْفُرُونِ } [البقرة : ١٥١ ، ١٥٢] .

وكما أنه انعكس على الكافرين حالهم، فخافوا بعد الأمن، وجاعوا بعد الرغد، بَدَّل الله المؤمنين من بعد خوفهم أمنا، ورزقهم بعد العَيْلَة، وجعلهم أمراء الناس وحكامهم، وسادتهم وقادتهم وأئمتهم.(١)

وقال تعالى:(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ

---

(١)تفسير ابن كثير عند هاتين الآيتين

الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)[القصص:٧٦-٨٢]وقد تقدم تفسير هذه الآيات في ذكر هلاك قارون عليه لعا ئن الله

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ * فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ * ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ * وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٥-١٩].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآيات:

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها، وكانت التبابعة منهم، وبلقيس[1] -صاحبة سليمان- منهم، وكانوا في نعمة وغبطة في بلادهم، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم. وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه، ويشكروه بتوحيده وعبادته، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم أعرضوا عما أمروا به، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق في البلاد أيدي سبأ[2]، شذر مَذرَ، كما يأتي تفصيله وبيانه قريبًا إن شاء الله تعالى وبه الثقة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ﴾، ثم فسرها بقوله: ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أي: من ناحيتي الجبلين والبلدة بين ذلك، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أي: غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

وقوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ أي: عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم، وعدلوا[3] إلى عبادة الشمس، كما قال هدهد سليمان: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٢٢- ٢٤].

---

١ لم يثبت دليل على تسميتها ببلقيس وإنما هي إسرائيليات لا تصدق ولا تكذب وبنحو هذا الكلام سمعت شيخنا مقبلاً رحمه الله تعالى يقول.

٢ أي متفرّقين في كل وجه

٣ عدلوا:أي مالوا

وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾: قيل: المراد بالعرم المياه. وقيل: الوادي. وقيل: الجُرَذ[١]. وقيل: الماء الغزير. فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته، مثل: "مسجد الجامع". و"سعيد كُرْز" حكى ذلك السهيلي.

وذكر غير واحد منهم ابن عباس، ووهب بن منبه، وقتادة، والضحاك؛ أن الله، عزوجل، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم، بعث على السد دابة من الأرض، يقال لها: "الجُرَذ" نقبته -قال وهب بن منبه[٢]: وقد كانوا يجدون في كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير[٣] برهة[٤] من الزمان، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير، وولجت[٥] إلى السَّدّ فنقبته[٦]، فانهار عليهم[٧].

وقال قتادة وغيره: الجُرَذ: هو الخَلْد[٨]، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى، وجاءت أيام السيول، صَدمَ الماءُ البناءَ فسقط، فانساب الماء[٩] في أسفل الوادي،

---

١ "الجرذ"هو الكبير من الفئران جمعه جرذان.

٢ وهب بن منبه أخباري يخبر عن الإسرائيليات بكثرة وهذا منها

٣ "السنانير"جمع سنور وهو المعروف بالهر قال في "المعجم الوسيط"(٤٨٠)هو حيوان أليف من الفصيلة السنوريَّة ورتبة اللواحم من خير مآكله الفأر ومنه أهلي وبري.

٤ البرهة: المدة من الزمان.

٥ "وولجت"أي دخلت.

٦ "فنقبته"أي ثقبته.

٧ أي سال وجرى عليهم ماءه.

٨ "الخلد"هي الفأرة العمياء.

٩ أي جرى ومشى مسرعاً

وخرّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك، ونضب[١] الماء عن الأشجار التي في الجبلين عن يمين وشمال، فيبست وتحطمت، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ .

قال ابن عباس، ومجاهد، وعِكْرِمة، وعطاء الخُراساني، والحسن، وقتادة، والسُّدِّي: وهو الأراك[٢]، وأكلة البَرير[٣].

﴿وَأَثْلٍ﴾: قال العوفي، عن ابن عباس: هو الطَّرْفاء[٤].

وقال غيره: هو شجر يشبه الطرفاء. وقيل: هو السّمُرْ[٥]. فالله أعلم.

وقوله: ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾: لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السّدْر قال: ﴿وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾، فهذا الذي صار أمر تَيْنك[٦] الجنتين إليه، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة، والظلال العميقة والأنهار الجارية، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسّدْر[٧] ذي الشوك الكثير والثمر القليل. وذلك بسبب كفرهم

---

١ نضب الماء عن المكان إذا ذهب

٢ "الأراك":شجر من الحمض يُستاك به جمعه أُرُك.

٣ البرير: ثمر الطلح.

٤ "الطرفاء":قال في "القاموس" شجر وهي أربعة أصناف منها الأثل الواحدة طَرْفَاءَةٌ وَطَرَفَة.

٥ "السمر"ضرب من شجر الطلح واحدته سمرة وجمعه أسمر.

٦ "تينك"اسم اشارة.

٧ "السدر"هو شجر النبق واحدته سِدْرَة وجمعه سُدُر.

وشركهم بالله، وتكذيبهم الحق وعدولهم[١] عنه إلى الباطل؛ ولهذا قال: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا * وَهَلْ نُجَازِي إِلا الْكَفُورَ﴾ أي: عاقبناهم بكفرهم.

قال مجاهد: ولا يعاقب إلا الكفور.

وقال الحسن البصري: صدق الله العظيم. لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور. وقال طاوس: لا يناقش إلا الكفور.

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا علي بن الحسين، حدثنا أبو عمر بن النحاس الرملي، حدثنا حجاج بن محمد، حدثنا أبو البيداء، عن هشام بن صالح التغلبي، عن ابن خيرة - وكان من أصحاب عليٍّ رضي الله عنه -قال: جزاء المعصية الوهن في العبادة، والضيق في المعيشة، والتعسر في اللذة. قيل: وما التعسر في اللذة؟ قال: لا يصادف لذة حلالٍ إلا جاءه مَنْ يُنَغِّصه[٢] إيّاها.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ * فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ .

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعض، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حَمل زاد ولا ماء، بل حيث نزل

---

١ "عدولهم"أي ميلهم.

٢ أي يكدره.

وجد ماء وثمرًا، ويَقيل[١] في قرية ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم؛

ولهذا قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا﴾.

وقال مجاهد، والحسن، وسعيد بن جبير، ومالك عن زيد بن أسلم، وقتادة، والضحاك، والسُّدِّي، وابن زيد وغيرهم: يعني: قرى الشام. يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام في قرى ظاهرة متواصلة.

﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ أي: بينة واضحة، يعرفها المسافرون، يَقيلون في واحدة، ويبيتون في أخرى؛

ولهذا قال: ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ﴾ أي: جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه، ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ﴾ أي: الأمن حاصل لهم في سيرهم ليلًا ونهارًا. ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾، وقرأ آخرون: ﴿بعد بين أسفارنا﴾

وذلك أنهم بَطروا هذه النعمة - كما قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغير واحد-وأحبوا مفاوز[٢] ومهامه[٣] يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في

---

١ "يقيل" من القيلولة وهي نومة نصف النهارأوالإستراحة فيه وإن لم يكن نوم.

٢ "مفاوز"جمع مفازة وهي الصحراء والفلاة لا ماء فيها.

٣ مهامه:جمع مهمهة وهي المفازة البعيدة والبلد المقفر.

الحَرُور[١] والمخاوف، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض، من بقلها[٢]

وقثائها[٣] وفومها[٤] وعدسها وبصلها، مع أنهم كانوا في عيش

رغيد في مَنّ[٥] وسلوى[٦] وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ [القصص: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقال في حق هؤلاء: ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ أي: بكفرهم، ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ

---

١ مهامه:جمع مهمهة وهي المفازة البعيدة والبلد المقفر.

٢ قال في العين:البقل ما ليس بشجر دقٍّ ولا جلٍّ وفرق بين البقل ودق الشجر أن البقل إذا رعي لم يبق له ساق والشجر تبقى له ساق وإن دقت وقال في "المعجم الوسيط"(٨٦) البقل:نبات عشبيٌّ يغتذي الإنسان به أو بجزء منه دون تحويله صناعياًجمعه بقول.

٣ القثاء:نوع من البطيخ نباتي قريب من الخيار لكنه أطول واحدته قثّاءة.انظر "المعجم الوسيط"

٤ الثوم وقيل الحنطة

٥ المن:هو كل ما امتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد انظر "تفسير ابن كثير".

٦ السلوى:طائر

وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: جعلناهم حديثا للناس، وَسمَرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الإجتماع والألفة والعيش الهنيء تفرقوا في البلاد هاهنا وهاهنا؛

ولهذا تقول العرب في القوم إذا تفرقوا: تفرقوا أيدي سبأ وأيادي سبأ وتفرقوا شَذَرَ مَذَرَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سبأ:١٩].

أي: في هذا الذي حل بهؤلاء من النقمة والعذاب وتبديل النعمة وتحويل العافية عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام لعبرة ودلالة لكل عبد صبار على المصائب شكور على النعم.

الفصل الثالث: في أسباب الهلاك التي تعود إلى المخلوقين بعضهم مع بعض

السبب الأول: البغي والعقوق

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بابان معجلان عقوبتهما في الدنيا(١): البغي(٢) والعقوق(٣)».(٤)

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أجدر(٥) أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر(٦) له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم».(٧)

---

(١) «معجلان عقوبتهما في الدنيا» أي: قبل موت فاعلها.

(٢) «البغي»: هو مجاوزة الحد والظلم.

(٣) أي: للوالدين، وإن عليا أو أحدهما أي: إيذاؤهما ومخالفتهما فيما لا يخالف الشرع. انظر "فيض القدير" (٣/٢٥١).

(٤) حديث صحيح رواه الحاكم (٤/١٧٧)، وهو في "الصحيحة" (١١٢٠) للعلامة الألباني الألباني رحمه الله.

(٥) «أجدر» أي: أحرى.

(٦) أي: ما يؤجل من العقوبة.

(٧) رواه أحمد (٥/٣٦)، وأبو داود (٤٨٨١)، والترمذي (٢٦٢٩)، بإسناد صحيح وهو في

السبب الثاني: الزنا والربا

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تشترى الثمرة حتى تطعم، وقال: إذا ظهر الزنا والربا في قرية فقد أحلوا بأنفسهم عذاب الله».(١)

السبب الثالث: اليمين الفاجرة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ليس شيء أطيع الله فيه أعجل ثوابًا من صلة الرحم وليس شيء أعجل من البغي وقطيعة الرحم واليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع(٢)».(٣)

في "الصحيح المسند" (١١٦٦) للعلامة الوادعي رحمه الله.

(١) صحيح لغيره. رواه الحاكم (٣٧/٢)، والطبراني في "الكبير" (٤٦٠/١) وله شاهد من حديث ابن مسعود رضي الله عنه رواه أحمد (٤٠٢/١) وهو في "صحيح الجامع" (٦٧٩).

(٢) «بلاقع» جمع بلقع وهي الأرض القفراء التي لا شيء فيها، يريد أن الحالف يفتقر ويذهب ما في بيته من الرزق وقيل هو أن يفرق الله شمله ويغير عليه ما أولاه من نعمه. انظر "فيض القدير" (٤٦٥/٥).

(٣) حسن لغيره. رواه البيهقي في "الكبرى" (٣٥/١٠)، وله شواهد انظرها في "الصحيحة" (٩٧٨) للعلامة الألباني رحمه الله.

السبب الرابع: الظلم وأعظمه الشرك باللّه تعالى

قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء وضع الشيء في غير موضعه المختص به إلى أن قال:

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق ولذلك قال: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣] وإياه قصد(١) بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨] ﴿وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١] في آيٍ كثيرة.

الثاني: ظلم بينه وبين الناس وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [الشورى:٤٠].

وبقوله: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ﴾ [الشورى:٤٢].

وبقوله: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ [الإسراء:٣٣].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ [فاطر:٣٢] وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾[النمل: ٤٤ – والقصص: ١٦] ﴿إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [النساء:٦٤] ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾ [البقرة:٢٣١].

---

(١) أي الله سبحانه وتعالى، ولا نعلم دليلًا يثبت لله تعالى صفة القصد ولو قال وإياه أراد بقوله... إلخ لكان أولى لثبوت صفة الإرادة لله تعالى في أدلة كثيرة ليس هذا موضع ذكرها والله أعلم.

وكل ذه الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس؛ فإن الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه.(١)

قلت: وإليك الأدلة الدالة على أن الظلم من أسباب الهلاك:

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آَيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص:٥٩].

وقال تعالى: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥].

قال ابن كثير رحمه الله: في تفسير هذه الآية: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ أي: كم من قرية أهلكتها ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ أي: مكذبة لرسلها ﴿فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ قال الضحاك: سقوفها أي: خربت منازلهم وتعطلت حواضرها

﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾ أي: لا يستقى منها ولا يردها أحد بعد كثرة ورديها والازدحام عليها

﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ قال عكرمة: يعني: المبَيَّض بالجص وروي عن علي بن أبي طالب ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك وقال آخرون: هو المنيف المرتفع.

---

(١) "مفردات ألفاظ القرآن" للراغب (٥٣٧-٥٣٨).

وقال آخرون: المشيد المنيع الحصين وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها فإنه لم يحم أهله شدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٨]. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ * وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا(١) مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ * لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

(١) "قصمنا" أي: أهلكنا "يركضون" أي: يهربون ويعدُون بسرعة هاربين "وارجعوا" أي: عودوا "ما أترفتم فيه" الذي تنعمتم فيه وتوسعتم في معايشه "ومساكنكم" أي: دياركم "تسألون" أي: تقصدون للسؤال فتشاورن فيما نزل بكم "ياويلنا" يا هؤلاء هذا هلاكنا وعذابنا "فما زالت تلك دعواهم" أي لم يزالوا يقولون "ياويلنا إنا كنا ظالمين" "حصيداً" كما يحصد الزرع "خامدين" ميتين كخمود النار إذا طفئت.

وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ* قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ * فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ * ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ[١] فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٣-١٤].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله ليملي[٢] للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢]»[٣].

---

١ "خلائف"أي استخلفناكم بعدهم.

٢ «ليملي للظالم» أي: يمهله.

٣ رواه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).

قوله: «حتى إذا أخذه لم يفلته» قال الحافظ: أي: لم يخلصه . أي: إذا أهلكه لم يرفع عنه الهلاك، وهذا على تفسير الظلم بالشرك على إطلاقه، وإن فسر بما هو أعم فيحمل على كل ما يليق به.(١)

السبب الخامس: عمل قوم لوط

قال الله تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ * أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ * وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٥].

قال الحافظ ابن كثير في تفسير هذه الآيات:

يقول تعالى مخبرًا عن نبيه لوط عليه السلام، أنه أنكر على قومه سُوء صنيعهم، وما كانوا يفعلونه من قبيح الأعمال، في إتيانهم الذكران من العالمين، ولم يسبقهم إلى هذه

---

(١) "الفتح" (٨/٤٥٠).

الفعلة أحد من بني آدم قبلهم. وكانوا مع هذا يكفرون بالله، ويكذّبون رسوله ويخالفونه ويقطعون السبيل، أي: يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم، ﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ﴾ أي: يفعلون ما لا يليق من الأقوال والأفعال في مجالسهم التي يجتمعون فيها، لا ينكر بعضهم على بعض شيئًا من ذلك، فمن قائل: كانوا يأتون بعضهم بعضًا في الملأ قاله مجاهد.

ومن قائل: كانوا يتضارطون ويتضاحكون؛ قالته عائشة ، والقاسم.

ومن قائل: كانوا يناطحون بين الكباش، ويناقرون بين الديوك، وكل ذلك كان يصدر عنهم، وكانوا شرًّا من ذلك.

وقوله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾، وهذا من كفرهم واستهزائهم وعنادهم؛ ولهذا استنصر عليهم نبي الله فقال: ﴿رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾.

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ * قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت:٣١-٣٥].

لما استنصر لوط عليه السلام، اللهَ عليهم، بعث الله لنصرته ملائكة فمروا على إبراهيم عليه السلام، في هيئة أضياف، فجاءهم بما ينبغي للضيف، فلما رأى أنه لا همَّة لهم إلى الطعام نَكِرَهم، وأوجس منهم خيفة، فشرعوا يؤانسونه ويبشرونه بوجود ولد صالح من امرأته سارة - وكانت حاضرة- فتعجبت من ذلك، كما تقدم بيانه في سورة (هود) و(الحجر). فلما جاءت إبراهيم البشرى، وأخبروه بأنهم أرسلوا لهلاك قوم لوط، أخذ يدافع لعلهم يُنظَرون[١]، لعل الله أن يهديهم، ولما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُو أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي: من الهالكين؛ لأنها كانت تمالئهم[٢] على كفرهم وبغيهم ودبرهم.

ثم ساروا من عنده فدخلوا على لوط في صورة شباب حسان، فلما رآهم كذلك ، ﴿سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ أي: اغتمَّ بأمرهم، إن هو أضافهم خاف عليهم من قومه، وإن لم يضفهم خشي عليهم منهم، ولم يعلم بأمرهم في الساعة الراهنة.﴿قَالُوا لا تَخَفْ وَلا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ * إِنَّا مُنزلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾،

وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قُرَاهُم من قرار الأرض، ثم رفعها إلى عَنَان السماء، ثم قلبها عليهم. وأرسل الله عليهم حجارة من سجيل منضود، مسومة عند

---

١ "ينظرون"أي يمهلون ويؤخرون

٢ "تمالئهم"أي تعاونهم.

ربك وما هي من الظالمين ببعيد، وجعل الله مكانها بحيرة خبيثة منتنة، وجعلهم عبرة إلى يوم التناد، وهم من أشد الناس عذابًا يوم المعاد؛

ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ أي: واضحة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، كَمَا قَالَ: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ * وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧-١٣٨].

السبب السادس: انتهاك عرض المسلم بغير حق

عن أسامة بن شريك رضي الله عنه قال: خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم حاجًّا فكان الناس يأتونه فمن قال: يا رسول الله سعيت قبل أن أطوف أو قدمت شيئًا أوأخرت شيئًا فكان يقول: «لا حرج لا حرج(١) إلا على رجل اقترض(٢) عرض رجل مسلم(٣) وهو ظالم(٤) فذلك الذي حَرِج وهلك».(٥)

---

(١) «لا حرج» أي: لا إثم.

(٢) «اقترض» أي: اقتطع.

(٣) «عرض رجل مسلم» أي: نال منه وقطعه بالغيبة وغيرها.

(٤) قوله: «وهوظالم» أخرج الجرح بحق كجرح أهل البدع والأهواء؛ فإنه لا غيبة لمبتدع كما قال بعض السلف، وهكذا أيضًا يخرج جرح الرواة والشهود والجرح والتعديل علم جليل له أدلة كثيرة من الكتاب والسنة، راجعها إن شئت في مقدمة "المخرج من الفتنة" لشيخنا الإمام الوادعي رحمه الله.

(٥) رواه أحمد (٤/٢٧٨)، وأبو داود (٢٠١٥) بإسناد صحيح وهو في "الصحيح المسند"

السبب السابع: التفريق بين الشريف والضعيف في الحدود فيحد الضعيف ويترك الشريف

عن عائشة رضي الله عنها: أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ومن يجترئ(١) عليه إلا أسامة بن زيد حبُّ(٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمه أسامة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أتشفع في حد من حدود الله!» ثم قام فاختطب ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها».(٣)

---

(٢٠).

(١) يجترئ. أي: يتجاسر عليه.

(٢) حب. أي: محبوبه.

(٣) رواه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).

السبب الثامن: المدح في الوجه لمن خيف عليه الإعجاب

عن أبي موسى رضي الله عنه قال: سمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلًا يثني على رجل ويطريه(١) في المدح فقال: «أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل».(٢)

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله:

قوله: «لقد أهلكتم أو قطعتم ظهر الرجل». كذا فيه بالشك وكذا لمسلم وسيأتي في حديث أبي بكرة الذي بعده بلفظ: «قطعت عنق صاحبك» وهما بمعنى والمراد بكل منهما الهلاك؛ لأن من يقطع عنقه يقتل ومن يقطع ظهره يهلك.(٣)

(١) يطريه. من الإطراء وهو المبالغة في المدح.

(٢) رواه البخاري (٦٠٦٠)، ومسلم (٣٠٠١).

(٣) "فتح الباري" (١٠/٥٨٥) ط دار السلام.

وعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه ذكر عنده رجل فقال رجل: يا رسول الله ما من رجل بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل منه في كذا وكذا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ويحك(١)؛ قطعت عنق صاحبك» مرارًا يقول ذلك ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن كان أحدكم مادحًا أخاه لا محالة فليقل: أحسب فلانًا إن كان يرى أنه كذلك ولا أزكي(٢) على الله أحدًا».(٣)

قوله: «قطعت عنق صاحبك» وفي رواية: «قطعت ظهر الرجل» معناه أهلكتموه، وهذه استعارة من قطع العنق الذي هو القتل لاشتراكهما في الهلاك لكن هلاك هذا الممدوح في دينه وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب. قاله النووي.

وقال رحمه الله: باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه فتنة على الممدوح.

ذكر مسلم في هذا الباب الأحاديث الواردة في النهي عن المدح وقد جاءت أحاديث كثيرة في الصحيحين بالمدح في الوجه،

---

(١) «ويحك» قال الحافظ في "الفتح": هي كلمة رحمة وتوجع وويل :كلمة عذاب.

(٢) «أزكي على الله أحدًا» أي: لا أقطع على عاقبة أحد ولا ضميره لأن ذلك مغيب عنا، ولكن أحسب، وأظن لوجود الظاهر المقتضي لذلك قاله النووي.

(٣) رواه البخاري (٦٠٦١)، ومسلم (٣٠٠٠).

قال العلماء: وطريق الجمع بينها أن النهي محمول على المجازفة(١) في المدح والزيادة في الأوصاف أو على من يخاف عليه فتنة من إعجاب ونحوه إذا سمع المدح، وأما من لا يخاف عليه ذلك لكمال تقواه ورسوخ عقله، ومعرفته فلا نهي في مدحه في وجهه إذا لم يكن فيه مجازفة بل إن كان يحصل بذلك مصلحة كتنشيط للخير والازدياد منه أو الدوام عليه، أو الاقتداء به كان مستحبًا، والله أعلم.(٢)

السبب التاسع: جور السلطان سبب لهلاكه يوم القيامة

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من أمير عشرة إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولًا(٣) لا يفكه إلا العدل أو يوبقه(٤) الجور(٥)».(٦)

---

(١) "المجازفة" المقصود بها هنا إرسال الكلام بالمدح بغير روية

(٢) شرح النووي على "صحيح مسلم" (١٨/٣٢٦).

(٣) «مغلولاً» أي: يده مشدودة إلى عنقه.

(٤) «أو يوبقه» أي: يهلكه.

(٥) «الجور» أي: الظلم.

(٦) حديث صحيح. رواه أحمد (٢/٤٣١)، والدارمي (٢٥١٥) وهو في "الصحيح المسند" = (١٣٩٥) لشيخنا الإمام الوادعي رحمه الله تعالى.

القسم الرابع: بعض موانع الهلاك

١ـ الإيمان والتقوى

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية :

(يخبر تعالى عن قلة إيمان أهل القرى الذين أرسل فيهم الرسل، كقوله تعالى: ﴿فَلَوْلا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [يونس:٩٨] أي: ما آمنت قرية بتمامها إلا قوم يونس، فإنهم آمنوا، وذلك بعد ما عاينوا العذاب، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ * فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ﴾ [الصافات:١٤٧-١٤٨] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ [سبأ:٣٤].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ أي: آمنت قلوبهم بما جاءتهم به الرسل، وصدقت به واتبعته، واتقوا بفعل الطاعات وترك المحرمات، ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: قطر السماء ونبات الأرض. قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: ولكن كذبوا رسلهم، فعاقبناهم بالهلاك على ما كسبوا من المآثم والمحارم.

ثم قال تعالى مخوفًا ومحذرًا من مخالفة أوامره، والتجرؤ على زواجره: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى﴾ أي: الكافرة ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا﴾ أي: عذابنا ونكالنا، ﴿بَيَاتًا﴾ أي: ليلًا ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ * أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ أي: في حال شغلهم وغفلتهم، ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللهِ﴾ أي: بأسه ونقمته وقدرته عليهم وأخذه إياهم في حال سهوهم وغفلتهم ﴿فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾؛

ولهذا قال الحسن البصري، رحمه الله: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مُشْفِق وَجِل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق:٢-٣].

قال العلامة السعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

ولما كان الطلاق قد يوقع في الضيق والكرب والغم، أمر تعالى بتقواه، ووعد من اتقاه في الطلاق وغيره، بأن الله يجعل له فرجًا ومخرجًا،

فإذا أراد العبد الطلاق، ففعله على الوجه الشرعي، بأن أوقعه طلقة واحدة، في غير حيض ولا طهر قد وطئ فيه(١) فإنه لا يضيق عليه الأمر، بل جعل الله له فرجًا وسعة يتمكن بها من مراجعة النكاح إذا ندم على الطلاق،

والآية، وإن كانت في سياق الطلاق والرجعة، فإن العبرة بعموم اللفظ، فكل من اتقى الله تعالى، ولازم مرضاة الله في جميع أحواله، فإن الله يثيبه في الدنيا والآخرة.

---

(١)"وطىء فيه"أي جامع فيه.

ومن جملة ثوابه أن يجعل له فرجًا ومخرجًا من كل شدة ومشقة،

وكما أن من اتقى الله جعل له فرجًا ومخرجًا، فمن لم يتق الله، وقع في الشدائد والآصار والأغلال، التي لا يقدر على التخلص منها والخروج من تبعتها، واعتبر ذلك بالطلاق، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه، بل أوقعه على الوجه المحرم، كالثلاث ونحوها، فإنه لابد أن يندم ندامة لا يتمكن من استدراكها والخروج منها. اهـ

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [فصلت:١٧-١٨].

قال ابن كثير في تفسير هاتين الآيتين:

وقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ قال ابن عباس، وأبو العالية، وسعيد بن جبير، وقتادة، والسدي، وابن زيد: بينا لهم.

وقال الثوري: دعوناهم.

﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ أي: بصرناهم، وبينا لهم، ووضحنا لهم الحق على لسان نبيهم صالح عليه السلام ، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله التي جعلها آية وعلامة على صدق نبيهم، ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ أي: بعث الله عليهم

صيحة ورجفة وذلًا وهوانًا وعذابًا ونكالًا ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أي: من التكذيب والجحود.

﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي: من بين أظهرهم، لم يمسهم سوء، ولا نالهم من ذلك ضرر، بل نجاهم الله مع نبيهم صالح عليه السلام بإيمانهم، وتقواهم لله، عز وجل. انتهى.

وقال تعالى:(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ)[هود:٥٨]

وقال تعالى:(فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)[هود:٦٦]

وقال تعالى:(وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩٤) كَأَنْ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا أَلَا بُعْدًا لِمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ)[هود:٩٤-٩٥]فأخبر سبحانه في هذه الآيات أنه إنما نجا مَن نجا من أقوام هؤلاء الأنبياء عليهم السلام بسبب إيمانهم.

وقال تعالى:(فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٢) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ)[يونس:١٠٢-١٠٣]

فأخبر سبحانه أن من حقق الإيمان كان حقا على الله أن ينجيه من جميع الشرور والمهالك في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[الصف:١٠-١٢]

وقال تعالى:(الَّذِينَ آَمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)[التوبة:٢٠]

٢ـ العمل الصالح مع الإيمان

قال الله تعالى:(فَأَمَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ)[الجاثية:٣٠]

وقال تعالى:(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[التغابن:٩]

وقال تعالى:(إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ)[البروج:١١]

٣ـ العمل الصالح مع الإخلاص لله تعالى

عن ابن عمررضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «انطلق ثلاثة رهطٍ(١) ممن كان قبلكم، حتى أووا المبيت(٢) إلى غار، فدخلوه، فانحدرت(٣) صخرة من الجبل، فسدت عليهم الغار، فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة، إلا أن تدعو الله بصالح أعمالكم. فقال رجل منهم: اللهم! كان لي أبوان شيخان كبيران، وكنت لا أغبق(٤) قبلهما أهلًا ولا مالًا، فناء(٥) بي في طلب شيء يومًا، فلم أرح(٦) عليهما حتى ناما، فحلبت لهما غبوقهما، فوجدتهما نائمين، وكرهت أن أغبق قبلهما أهلًا أو مالًا، فلبثت والقدح على يدي؛ أنتظر استيقاظهما، حتى برق الفجر(٧)، فاستيقظا فشربا غبوقهما، اللهم! إن كنتُ فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج؛ عنا ما نحن فيه، من هذه الصخرة، فانفرجت شيئًا لا يستطيعون

(١)(رهط) ما دون العشرة من الرجال ولا يكون فيهم امرأة ولا واحد له من لفظه

(٢)(أووا المبيت) التجؤوا إلى موضع ليبيتوا فيه .

(٣)"فانحدرت"أي سقطت.

(٤)(أغبق) من الغبوق وهو شرب العشي .

(٥)(فناء بي) بعد .

(٦)(أرح) أرجع .

(٧)(برق الفجر) ظهر الضياء .

الخروج. قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الآخر: اللهم! كانت لي بنت عم، كانت أحب الناس إليَّ فأردتها عن نفسها(١)، فامتنعت مني، حتى ألمت بها سنة من السنين(٢)، فجاءتني، فأعطيتها عشرين ومائة دينار، على أن تخلي بيني وبين نفسها، ففعلت، حتى إذا قدرت عليها(٣)، قالت: لا أحل لك أن تفض الخاتم(٤) إلا بحقه(٥). فتحرجت من الوقوع عليها، فانصرفت عنها، وهي أحب الناس إليَّ، وتركت الذهب الذي أعطيتها. اللهم! إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنَّا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

قال النبي صلى الله عليه وسلم : وقال الثالث: اللهم! إني استأجرت أجراء فأعطيتهم أجرهم، غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت(٦) أجره حتى كثرت منه الأموال، فجاءني بعد حين، فقال: يا عبد الله، أدِّ إليَّ أجري. فقلت له: كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق(٧). فقال: يا عبد الله، لا تستهزئ تستهزئ بي. فقلت: إني لا أستهزئ بك، فأخذه كله، فاستاقه، فلم يترك منه شيئًا.

---

(١)(فأردتها عن نفسها) كناية عن طلب الجماع .

(٢)(ألمت بها سنة) نزلت بها سنة من سني القحط فأحوجتها .

(٣)«قدرت عليها» أي: تمكنت من الوقوع بها، من غير معارض.

(٤)«تفض الخاتم» الخاتم: كناية عن الفرج .

(٥)«إلا بحقه» أي: بزواج مشروع.

(٦)«فثمرت» أي: كثرت.

(٧)(الرقيق) المملوك يطلق على الواحد والجمع والذكر والأنثى

اللهم! فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون».[١]

٤ـ الاعتصام بالكتاب والسنة

قال الله تعالى:(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا)[الأحزاب:٧١]

وقال تعالى:(تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ)[النساء:١٣]

وعن أبي شريح الخزاعي رضي الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : " أبشروا أبشروا ، أليس تشهدون أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ؟ قالوا : نعم ، قال : فإن هذا القرآن سبب طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به ، فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا "[٢].

---

١ البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

٢ حسن: رواه ابن أبي شيبة(١٠/٤٨١)ومن طريقه عبد بن حميد في "المنتخب"(١/٤٣٢) وهو في "الصحيح المسند"(١٢٣١) لشيخنا الإمام الوادعي رحمه الله .

وعن عبد الله بن عمرورضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لكل عمل شرة[١]، ولكل شرة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح، ومن كانت إلى غير ذلك، فقد هلك».[٢]

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه و سلم قال : (إنما مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العريان فالنجاء فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم فذلك مثل من أطاعني فاتبع ما جئت به ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق)[٣]

٥ـخشية اللّه تبارك وتعالى

قال الله تعالى:(وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَّ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ)[النور:٥٢]يعني الذين فازوا بكل خير وأمنوا من كل ضير.

---

١ «شرة» أي: قوة ونشاط.

٢ رواه أحمد (٦٩٥٨) بإسناد صحيح. وهو في "الصحيح المسند" (٨٠٢) لشيخنا الـــوادعي رحمه الله.

٣ رواه البخاري(٧٢٨٣)ومسلم(٢٢٨٣)

٦ـ الصدق

عن عبد الله بن كعب بن مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي-، قال: سمعت كعب بن مالك يحدث حديثه حين تخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك قال: كعب بن مالك لم أتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك، غير أني قد تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحدًا تخلف عنه إنما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون يريدون عير قريش[١]، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد،

ولقد شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام، وما أحبُّ أنَّ لي بها مشهد بدر، وإن كانت بدر أذكر في الناس منها، وكان من خبري حين تخلفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك: أني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني، حين تخلفت عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله صلى الله عليه وسلم في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا[٢]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلا للمسلمين أمرهم؛ ليتأهبوا أهبة غزوهم[٣]، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ، - يريد بذلك:

---

١ "العير" الإبل بأحمالها.

٢ "مفازاً"أي:برية طويلة قليلة الماء.

٣ أي:يستعدوا بما يحتاجون إليه في السفر.

الديوان- قال كعب: فقلَّ رجل يريد أن يتغيب يظن أن ذلك سيخفى له، ما لم ينزل فيه وحيٌ من الله عزوجل.

وغزا رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أصعر[١]، فتجهز رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه، وطفقت أغدو لكي أتجهز معهم، فأرجع ولم أقض شيئًا، وأقول في نفسي: أنا قادر على ذلك إذا أردت. فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى استمر بالناس الجد[٢]؛ فأصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم غاديًا والمسلمون معه، ولم أقض من جهازي[٣] شيئًا، ثم غدوت فرجعت ولم أقض شيئًا، فلم يزل ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا، وتفارط الغزو[٤]، فهممت أن أرتحل فأدركهم، فيا ليتني فعلت. ثم لم يقدر ذلك لي، فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم يحزنني أني لا أرى لي أسوة إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق[٥]، أو رجلًا ممن عذر الله، من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بلغ تبوكًا، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب بن مالك ؟ قال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه براده، والنظر في عطفيه. فقال له معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله، ما

---

١ أي:أميل.

٢ أي:الإجتهاد في أمر السفر.

٣ أي:عدتي للسفر.

٤ أي:تقدم الغزاة وسبقوا.

٥ أي:مطعوناًعليه بأنه منافق.

علمنا عليه إلا خيرًا. فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينما هو على ذلك رأى رجلا مبيضا[١]

يزول[٢] به السراب[٣] فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «كن أبا خيثمة». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاري، وهو الذي تصدق بصاع التمر حين لمزه المنافقون[٤].

فقال كعب بن مالك فلما بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد توجه قافلًا[٥] من تبوك حضرني بثي[٦]، فطفقت أتذكر الكذب وأقول بم أخرج من سخطه غدًا؟ وأستعين على ذلك كُلَّ ذي رأي من أهلي، فلمَّا قيل لي: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أظل قادمًا زاح عني الباطل، حتى عرفت أني لن أنجو منه بشيءٍ أبدًا، فأجمعت صدقه[٧]، وأصبَح رسول الله صلى الله عليه وسلم قادمًا، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فلمَّا فعل ذلك جاءه المخلفون[٨] فطفقوا يعتذرون إليه، ويحلفون له، وكانوا بضعةً[٩] وثمانين رجلًا، فقبل

---

١ أي:لابساًالبياض.

٢ أي:يتحرك به وينهض.

٣ هو ما يظهر للإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء.

٤ أي:عابوه وطعنوه حين تصدق بصاع التمروقالوا إن الله غني عن صاع هذا.

٥ أي:راجعاً

٦ البث:الحزن الشديد.

٧ أي:عزمت عليه وجزمت به.

٨ أي:عن الخروج معه إلى تبوك.

٩ البضع :ما بين الثلاثة إلى التسعة.

منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمَّا سلمتُ، تبسم تبسم المغضب[١]، ثم قال: «تعال». «تعال». فجئت أمشي، حتى جلست بين يديه، فقال لي: «ما خلفك؟! ألم تكن قد ابتعت ظهرك[٢]؟!» قال: قلت: يا رسول الله، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل أهل الدنيا، لرأيت أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أعطيت جدلاً[٣]، ولكني والله، لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه[٤] إني لأرجو فيه عقبى الله[٥]، الله[٥]، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. عنك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك».

فقمت وثار رجال من بني سلمة فاتبعوني، فقالوا لي: والله ما علمناك أذنبت ذنبًا قبل هذا، لقد عجزت في أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

١ أي:الغضبان.

٢ أي:اشتريت راحلتك.

٣ أي:فصاحة وبلاغة وبراعة.

٤ أي:تغضب.

٥ أي:العاقبة الحسنة بتوبة الله عليَّ ورضى رسول الله صلى الله عليه وسلم عني،ولصدقه رضي الله عنه لم يخب ظنه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم فتاب الله عليه ورضي رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه.

بما اعتذر به إليه المخلفون، فقد كان كافيك ذنبك، استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم لك. قال: فوالله، ما زالوا يؤنبونني[١]، حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي.

قال: ثم قلت لهم: هل لقي هذا معي من أحد؟ قالوا: نعم، لقيه معك رجلان؛ قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك. قال: قلت: من هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العامري، وهلال بن أمية الواقفي. قال: فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، فيهما أسوة، قال: فمضيت[٢] حين ذكروهما لي قال: ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه. قال: فاجتنبنا الناس. وقال: تغيروا لنا، حتى تنكرت لي[٣] في نفسي الأرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا[٤] وقعدا في بيوتهمايبكيان، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم[٥] وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه بردِّ السَّلام أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، وأسارقه النَّظر، فإذا أقبلت على صلاتي نظر إليَّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض

١ أي:يلومونني أشد اللوم.

٢ "فمضيت"أي:ذهبت مصمماًعلى ما وقع مني من الإخبار بالصدق.

٣ "تنكرت"أي:تغيرت عليَّ.

٤ "فاستكانا"أي:خضعا وصاحباه هما :مرارة بن الربيع العمري وهلال بن أمية الواقفي.

٥ "أشب القوم"أي:أصغرهم سناً.

عنِّي، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين مشيت حتى تسوَّرت جدار حائط أبي قتادة[١]، وهو ابن عمِّي، وأحب الناس إليَّ، فسلمت عليه، فوالله! ما ردَّ عليَّ السّلام، فقلت له: يا أبا قتادة، أنشدك بالله[٢]، هل تعلمنَّ أني أحب الله ورسوله؟ قال: فسكت، فعدت فناشدته، فسكت، فعدت فناشدته، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضت عيناي[٣]، وتوليت حتى تسورت الجدار، فبينا أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نبطي[٤] من نبط أهل الشام، ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة، يقول: من يدلُّ على كعب بن مالك. قال: فطفق الناس يشيرون له إليَّ، حتى جاءني فدفع إليَّ كتابًا من ملك غسان، وكنت كاتبًا فقرأته، فإذا فيه: أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة[٥]، فالحق بنا نواسك[٦]. قال فقلت حين قرأتها: قرأتها: وهذه أيضًا من البلاء، فتيامت بها التنور[٧]، فسجرتها بها[٨]، حتى إذا مضت أربعون من الخمسين، واستلبث الوحي[٩]، إذا رسولُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم

---

١ أي:علوت سور بستانه.

٢ أي:أسألك بالله تعالى.

٣ أي:بالدموع.

٤ النبطي:هو الفلاح سمي بذلك لأنه يستنبط الماء،أي:يستخرجه.

٥ "مضيعة"أي:دار يضاع فيها حقك.

٦ "نواسك"من المواساة.

٧ "التنور"هو ما يخبز فيه.

٨ أي:أوقدها.

٩ أي:أبطأ.

وسلم يأتيني، فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرك أن تعتزل امرأتك.

قال: فقلت: أطلقها! أم ماذا أفعل؟! قال: لا، بل اعتزلها فلا تقربنها.

قال: فأرسل إلى صاحبي بمثل ذلك. قال فقلت لامرأتي الحقي بأهلك فكوني عندهم؛ حتى يقضي الله في هذا الأمر.

قال: فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له: يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع، ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: «لا، ولكن لا يقربنك[١]». فقالت: إنه والله! ما به حركة إلى شيء، ووالله ما زال يبكي يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في امرأتك؟ فقد أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه. قال: فقلت: لا استأذن فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يدريني ماذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استأذنته فيها، وأنا رجل شاب. قال: فلبثت بذلك عشر ليالٍ، فكَمُلَ لنا خمسون ليلة من حين نهي عن كلامنا. قال: ثم صليت صلاة الفجر صباح خمسين ليلة، على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عز وجل منَّا، قد ضاقت عليَّ نفسي، وضاقت عليَّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أَوْفَى[٢] على سلعٍ[٣]، يقول

---

١ إشارة إلى الجماع.

٢ أي:صعد.

٣ "سلع"جبل بالمدينة.

بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر. قال: فخررت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء فرج. قال: فآذن رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، فذهب قبل صاحبيَّ مبشرون، وركض رجل إليَّ فرسًا[١]، وسعى ساع من أسلم قبلي، وأوفى على الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس، فلما جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، فنزعت له ثوبيَّ فكسوتهما إياه ببشارته، والله! ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين، فلبستهما، فانطلقت أتأمم[٢] رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلقاني الناس فوجًا فوجًا[٣] يهنئونني بالتوبة، ويقولون: لتهنك توبة الله عليك. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسٌ في المسجد، وحوله الناس، فقام طلحة بن عبيدالله يهرول، حتى صافحني، وهنأني، والله! ما قام رجل من المهاجرين غيره، قال: فكان كعب لا ينساها لطلحة. قال كعب: فلمَّا سلمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - وهو يبرق وجهه؛ من السرور- ويقول: «أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك». قال: فقلت: أمن عندك، يا رسول الله، أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله وكان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا سر استنار وجهه كأن وجهه قطعة قمر قال وكنا نعرف ذلك قال فلما جلست بين يديه، قلت: يا رسول الله، إن من

---

١ أي:أجراه إليَّ إجراءً شديداً.

٢ أي:أقصد.

٣ "الفوج"الجماعة.

توبتي أن أنخلع[١] من مالي صدقة، إلى الله، وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أمسك بعض مالك؛ فهو خير لك». قال: فقلت: فإني أمسك سهمي الذي بخيبر. قال: وقلت: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإن من توبتي أن لا أحدث إلَّا صدقًا ما بقيت. قال: فوالله! ما علمت أن أحدًا من المسلمين أبلاه الله[٢] في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا أحسن مما أبلاني الله به، والله ما تعمدت كذبة منذ قلت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عز و جل: ﴿لَقَدْ تَابَ اللهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ * وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٧-١١٨] حتى بلغ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩].

قال كعب: والله، ما أنعم الله عليَّ من نعمة قط، بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظم في نفسي من صدقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن لا أكون كذبته فأهلك، كما

---

١ أي:أخرج.

٢ أي:أنعم الله عليه.

هلك الذين كذبوا؛ إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، وقال الله: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٥-٩٦].

قال كعب: كنَّا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين حلفوا، له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عز و جل: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا﴾ وليس الذي ذكر الله مما خلفنا، تخلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيانا، وإرجاؤه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه(١).

٧ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ * فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف:١٦٤-١٦٦].

---

(١) رواه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).

قال الله تعالى:(فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ)[هود:١١٦]

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية:(يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير، ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض.

وقوله: { إِلا قَلِيلا } أي: قد وجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا كثيراً، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غِيَره، وفجأة نِقَمه؛ ولهذا أمر تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، كما قال تعالى: { وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ } [آل عمران: ١٠٤]. وفي الحديث: "إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيّروه، أوشك أن يَعُمَّهُم الله بعقاب"؛ ولهذا قال تعالى: { فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأرْضِ إِلا قَلِيلا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ } .

وقوله: { وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ } أي: استمروا على ما هم فيه من المعاصي والمنكرات، ولم يلتفتوا إلى إنكار أولئك، حتى فَجَأهم العذابُ، { وَكَانُوا مُجْرِمِينَ }انتهى .

وعن النعمان بن بشيررضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل القائم على حدود الله[١] والواقع فيها: كمثل قوم استهموا[٢] على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء، مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا[٣] في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا!! فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم[٤] نجوا ونجوا جميعًا»[٥]

٨ـ التوبة والاستغفار

قال الله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر:٥٤].

قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ثم استحث سبحانه وتعالى عباده إلى المسارعة إلى التوبة، فقال: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ أي: ارجعوا إلى الله واستسلموا له ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ أي: بادروا بالتوبة والعمل الصالح قبل حلول النقمة. اهـ

---

١ أي:المنكر لها القائم على دفعها وإزالتها والمراد بالحدود:ما نهى الله عنه.

٢ أي:اقترعوا.

٣ أي:فتحنا ثقباًنستخرج منه الماء.

٤ أي:منعوهم وكفوهم عماأرادوا من الغرق.

٥ رواه البخاري(٢٤٩٣)

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣].

قال القرطبي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

لما قال أبو جهل: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ [الأنفال:٣٢] الآية، نزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ [الأنفال:٣٣]. كذا في "صحيح مسلم".(١)

﴿وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣] قال ابن عباس: كانوا يقولون في الطواف: غفرانك. والاستغفار وإن وقع من الفجار يُدفع به ضرب من الشرور والأضرار. اهـ

وقال العلامة ابن سعدي رحمه الله في تفسير هذه الآية:

فمنذ قالوا: ﴿اللهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ﴾ الآية، علم بمجرد قولهم أنهم السفهاء الأغبياء، الجهلة الظالمون، فلو عاجلهم الله بالعقاب، لما أبقى منهم باقية، ولكنه تعالى دفع عنهم العذاب بسبب وجود الرسول بين أظهرهم، فقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ فوجوده صلى الله عليه وسلم بين أظهرهم أمنة لهم من العذاب.

وكانوا مع قولهم هذه المقالة التي يظهرونها على رءوس الأشهاد، يدرون بقبحها، فكانوا يخافون من وقوعها فيهم، فيستغفرون الله تعالى، فلهذا قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

---

(١) مسلم رقم (٢٧٩٦)، وكذلك في صحيح البخاري برقم (٤٦٤٨).

الله مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ هذا مانع يمنع من وقوع العذاب بهم، بعد ما انعقدت أسبابه.

٩ـ إصلاح الأعمال

قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُوْنَ﴾ [هود: ١١٧].

قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية:

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ يا محمد ليهلك القرى التي أهلكها – التي قص علينا نبأها – ظلمًا وأهلها مصلحون في أعمالهم غير مسيئين، فيكون إهلاكه إياهم مع إصلاحهم وطاعتهم ربهم ظلمًا، ولكنه أهلكها لكفر أهلها بالله، وتماديهم في غيهم وتكذيبهم رسلهم، وركوبهم السيئات(١).

١٠ـ الدعاء والالتجاء إلى الله

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ [لقمان:٣٢].

وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ *

(١) "تفسير ابن جرير" (١٢/٦٣١).

فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يونس:٢٢-٢٣].

فأخبر سبحانه، أنهم إذ شعروا بمقدمات الهلاك دعوا الله وتضرعوا وابتهلوا إليه، وقلوبهم في تلك الحال في غاية الخضوع، والذل لله جل وعلا، فينفعهم الله بذلك، وينجيهم بسببه من الهلاك الذي كان سيحصل لـهم.

وهكذا أخبر سبحانه أنه أنجا نبيه يونس عليه السلام فأخرجه من بطن الحوت بسبب التجائه إلى الله سبحانه وتعالى.

قال الله تعالى: ﴿وَذَا النُّونِ(١) إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ * فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧-٨٨].

قال ابن جرير رحمه الله:

يقول الله تعالى ذكره: ﴿فَاسْتَجَبْنَا﴾ ليونس دعاءه إيانا ، إذ دعانا في بطن الحوت ، ونجيناه من الغمّ الذي كان فيه بحبْسناه في بطن الحوت وغمه بخطيئته وذنبه: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾، يقول جلّ ثناؤه: وكما أنجينا يونس من كرب الحبس في

(١) (وذا النون) أي: صاحب النون. والنون: هو الحوت، وصاحبه هو يونس بن متى عليه السلام، (إذ ذهب مغاضبًا) أي: لقومه (فظن أن لن نقدر عليه) أي: لن نضيق عليه في بطن= =الحوت. (فنادى في الظلمات) أي: ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل.

بطن الحوت في البحر إذ دعانا ، ﴿كذلك ننجي المؤمنين﴾ من كربهم إذا استغاثوا بنا ودعونا(١). اهـ

وعن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كان ملك فيمن كان قبلكم وكان له ساحر فلما كبر قال للملك إني قد كبرت فابعث إلي غلامًا أعلمه السحر، فبعث إليه غلامًا يعلمه، فكان في طريقه إذا سلك راهب(٢)، فقعد إليه وسمع كلامه فأعجبه، فكان إذا أتى الساحر مرَّ بالراهب وقعد إليه، فإذا أتى الساحر ضربه، فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا خشيت الساحر فقل: حبسني(٣) أهلي. وإذا خشيت أهلك فقل: حبسني الساحر.

فبينما هو كذلك، إذ أتى على دابة عظيمة، قد حبست الناس، فقال: اليوم أعلم آلساحر أفضل أم الراهب أفضل؟ فأخذ حجرًا فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك من أمر الساحر، فاقتل هذه الدابة، حتى يمضي الناس، فرماها فقتلها ومضى الناس، فأتى الراهب فأخبره، فقال له الراهب: أي بني، أنت اليوم أفضل مني، قد بلغ من أمرك ما أرى، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل عليَّ.

وكان الغلام يبرئ الأكمه(٤)، والأبرص،

---

(١) "تفسير الطبري" (١٦/٣٨٥).

(٢) : الراهب: هو المتعبد من النصارى.

(٣) حبسني. أي: منعني.

(٤) الأكمه: هو الذي يولد أعمى.

ويداوي الناس من سائر الأدواء(١)، فسمع جليس للملك، كان قد عمي، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: ما ههنا لك أجمع، إن أنت شفيتني. فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله، فإن أنت آمنت بالله، دعوت الله فشفاك، فآمن بالله، فشفاه الله، فأتى الملك، فجلس إليه، كما كان يجلس. فقال له الملك: من رد عليك بصرك؟! قال: ربي. قال: ولك رب غيري؟! قال: ربي، وربك الله.

فأخذه، فلم يزل يعذبه، حتى دل على الغلام، فجيء بالغلام، فقال له الملك: أي بني، قد بلغ من سحرك ما تبرئ الأكمه، والأبرص، وتفعل، وتفعل؟!! فقال: إني لا أشفي أحدًا، إنما يشفي الله.

فأخذه، فلم يزل يعذبه، حتى دل على الراهب، فجيء بالراهب، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى، فدعا بالمنشار، فوضع المنشار على مفرق رأسه(٢)، فشقه حتى وقع شقاه(٣).

ثم جيء بجليس الملك، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى. فوضع المنشار في مفرق رأسه، فشقه به، حتى وقع شقاه.

ثم جيء بالغلام، فقيل له: ارجع عن دينك، فأبى. فدفعه إلى نفر من أصحابه. فقال: اذهبوا به إلى جبل كذا، وكذا، فاصعدوا به الجبل، فإذا بلغتم ذروته(٤)، فإن

---

(١) الأدواء. أي: الأمراض والأسقام.

(٢) مفرق رأسه: وسطه، حيث ينفرق الشعر، وجمعه مفارق.

(٣) شقاه. أي: جانباه، واحدها شق.

(٤) ذروته. أي: أعلاه.

رجع عن دينه، وإلا فاطرحوه، فذهبوا به، فصعدوا به الجبل، فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت. فرجف بهم الجبل(١)، فسقطوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله، فدفعه إلى نفر من أصحابه، فقال: اذهبوا به، فاحملوه في قرقور(٢)، فتوسطوا به البحر، فإن رجع عن دينه، وإلا فاقذفوه. فذهبوا به.

فقال: اللهم! اكفنيهم بما شئت. فانكفأت(٣) بهم السفينة، فغرقوا، وجاء يمشي إلى الملك، فقال له الملك: ما فعل أصحابك؟ قال: كفانيهم الله..

فقال للملك: إنك لست بقاتلي، حتى تفعل ما آمرك به. قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد(٤)، وتصلبني على جذع(٥)، ثم خذ سهمًا من كنانتي(٦)، ثم ضع السهم في كبد القوس(٧)، ثم قل: باسم الله، رب الغلام، ثم ارمني، فإنك إذا فعلت ذلك، قتلتني.

---

(١) فرجف بهم الجبل. أي: اضطرب، وتحرك حركة شديدة.

(٢) قرقور. القرقور: السفينة الصغيرة.

(٣) فانكفأت. أي: انقلبت.

(٤) في صعيد واحد: الصعيد هنا الأرض البارزة.

(٥) جذع. أي: عود من أعواد النخل، وجمعه جذوع.

(٦) من كنانتي. الكنانة: جعبة السهام.

(٧) كبد القوس. أي: وسطها، وهو مقبضها عند الرمي.

فجمع الناس في صعيدٍ واحدٍ، وصلبه على جذع، ثم أخذ سهمًا من كنانته، ثم وضع السهم في كبد القوس، ثم قال: باسم الله، رب الغلام، ثم رماه، فوقع السهم في صدغه(١)، فوضع يده في صدغه، في موضع السهم، فمات.

فقال الناس: آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام، آمنا برب الغلام.

فأتي الملك فقيل له: أرأيت ما كنت تحذر؟! قد والله نزل بك حذرك(٢)، قد آمن الناس، فأمر بالأخدود(٣) في أفواه(٤) السكك(٥) فخدت، وأضرم(٦) النيران.

وقال: من لم يرجع عن دينه فأحموه فيها(٧)، أو قيل له: اقتحم(٨). ففعلوا حتى جاءت امرأة ومعها صبي لـها، فتقاعست(٩) أن تقع فيها، فقال لـها الغلام: يا أمه! اصبري، فإنك على الحق»(١٠).

---

(١) في صدغه. الصدغ: ما بين العين إلى شحمة الأذن.

(٢) نزل بك حذرك. أي: ما كنت تحذر وتخاف.

(٣) بالأخدود: الشق في الأرض مثل النهر الصغير، وجمعه أخاديد.

(٤) بأفواه. الأفواه: الأبواب.

(٥) السكك. أي: الطرق.

(٦) وأضرم. أي: أوقد.

(٧) فأحموه فيها. أي: احرقوه.

(٨) اقتحم. أي: ادخل فيها كرها.

(٩) فتقاعست. أي: توقفت ولزمت موضعها.

(١٠) رواه مسلم (٣٠٠٥).

١١ـ اتباع طريقة السلف الصالح رضوان الله عليهم

قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١٠٠].

ففي قوله تعالى: ﴿والذين اتبعوهم بإحسان﴾ دليل على أن من اتبع طريقة الصحابة وفَهمَ الأدلة من الكتاب والسنة، بفهمهم أنه فائز وناج من جميع الشرور والمهالك في الدنيا والآخرة.

١٢ـ الثبات على الحق والصبر على سخرية الساخرين من أهل الحق وعدم المبالاة بهم

قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ * فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ * إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ(١) [المؤمنون:١٠٩-١١١].

---

(١) اعلم أن كل عمل ترتب عليه وعد بالفوز، فهو مانع من موانع الهلاك؛ لأن الفوز ضد الهلاك. قال الفيروزآبادي في "القاموس المحيط" مادة: (فوز): الفوز النجاة، والظفر بالخير، والهلاك ضد. اهـ

فقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي:صبروا على الأذى والسخرية والاستهزاء، بهم وثبتوا على الحق، ولم يتزحزحوا عنه أبدًا. ﴿أنهم هم الفائزون﴾ فازوا بالسعادة وبالجنة وأَمِنُوا من الهلاك في الدنيا والآخرة بسبب صبرهم وثباتهم.

١٣ـ الجهاد في سبيل الله

قال الله تعالى: ﴿لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:٨٨-٨٩].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآَنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].